www.kotobarabia.com

رواية

حياه مستقرة

عادل عصمت

www.kotobarabia.com

صورة أخي

أثناء حديثي مع " ماجدة " أعدت فهم ما حدث. في تلك الأيام الصافية التي كنا ننهي فيها فهرسة مجموعة قليلة من الكتب، ثم ندخل في أحاديث تبدو بلا نهاية؛ أحاديث تغلفها مشاعر غامضة لا يمكن الاعتراف بها، ولا يجب الإعلان عنها، لكنها تكون مناخا لكي يسرد المرء حياته، محاطا بمجال من الاهتمام. حدثتها عن تفاصيل ذلك العام الفاصل الذي أدى بي إلى هذه الكآبة التي لاحظتها، وكثيرًا ما سألتني عنها. أثناء حكيي عرفت ما لم أكن أعرفه أثناء حدوثه. لمست الروح الداكنة التي غطت حياتي، والمنابع التي شربت منها، مما جعل " ماجدة " آخر طوق نجاة، لاح لي، ثم اختفى.

كان لموت أمي، وترك أخي المدينة وعدم حضوره جنازتها دخل في الموضوع. منذ عودته من حرب الخليج الثانية، والأمور تسير من سيئ إلى أسوأ. تحطمت سريعا واختفت من الوجود أسرة، تاركة نثارا من نويات أسر، ربما ستفرز حياة لها نفس الطعم الرمادي. هذا التحطم كان يبدو دائما على وشك الوقوع، لكن الهزات الخافتة لا تؤثر فينا ولا نعدها علامات، إلا بعد حدوثها، فنكتشف أن ما حدث كان يستحق النظر، وأننا لا بد أن نشحذ انتباهنا أكثر من ذلك.

دخل " حسام " الجيش في ربيع عام ١٩٩٠. كان يعود في أجازات قصيرة، " زهقان " كعادته؛ يقول إنه سوف يترك المعسكر ويهرب. لم يأخذ أحد كلامه على محمل الجد. فقد تخرج من كلية الزراعة وأصبح الآن رجلا، كل ما يفعله سوف يتحمل نتيجته. في خريف ذلك العام صادفه نوع من الحظ السيئ عندما كان عليه أن يسافر مع القوات

المصرية لإخراج الجيش العراقي من الكويت. أثناء شتاء عام ١٩٩١ كانت الرسائل التي تصل منه متسمة بنبرة عاطفية لم تتسم بها أبدا تعبيراته، لم نتعودها منه؛ فقد كان في حياته العادية نافرا طوال الوقت، لأنه الطفل الأخير، وحظي بتدليل خاص من أمه. "نورا" أختنا الكبيرة ظلت حاميته ومربيته. قرأت رسائله القادمة من الميدان، وقالت إن حالته غير طبيعية. كانت خائفة عليه، وأخبرتنا بأنه خائف أو يعاني من ألم، فلم تكن له أبدا هذه الطريقة العاطفية في التعبير، وصدقناها.

عندما عاد في أجازة من "حفر الباطن" في نهاية أبريل من عام ١٩٩١ كان مرحا على غير العادة، حتى إن أمي تشككت في حديث "نورا"، ولم يلاحظ أحد شحوب وجهه ولا نظراته الشاردة، لم يظهر ذلك إلا بعدما أخرج البيادة وراح ينظفها في الشرفة، ويتحدث أكثر من المعتاد، أو بدا لنا الأمر على هذا النحو، لأننا تعودنا على جلوسه صامتا منطويا على نفسه، حاد الكلام. تلك الحالة من الانفتاح لم تتكرر بعد ذلك، حكي عن الليالي الباردة في الصحراء وعن المعسكرات وقوات التحالف والجنود الأمريكيين، وحياته في المعسكر. كانت نبرته الساخرة خالية من الضغينة، وهو يحكي عن أنهم كانوا "أرخص" جنود، حتى السوريين تم نقلهم من المدن إلى الصحراء في أتوبيسات. أما هم فيرحلون في سيارات نقل الجنود. يجلسون على السطح الخشبي للشاحنات الميري الكئيبة، يغطيهم المشمع الكاكي. بعد صمت طويل، لا تظهر فيه حركة الأجساد التي تنظمها سرعة السيارة يبدأ أحدهم

الحديث ثم الغناء، وتضيع المهانة في تصفيق وغناء يتبدد في جوف الصحراء.

في شهر يوليو، عندما أنهى خدمته العسكرية، كان وجهه أكثر شحوبا. بدا لنا وكأن ما كان يخيفه في أجازاته قد ظهر فجأة على وجهه. قالت أمي إن أكل الصحراء ملوث بالرمال، وطبيخ الجنود هو الذي ترك في جسده هذا الهمود. لكن أوضاعه استمرت في التدهور. كان يشعر بثقل في معدته إذا أكل لقمة أو شرب كوبا من الماء. ينام طويلا، وفي أي وقت ندخل غرفته نجدها معبأة بالدخان.

بعد عدة أشهر بدأت مشاكله مرة أخرى. لم يصدر عنه ما يوحي بأنه يفهم وضعه أو يعي أنه قد أنهى تعليمه وفترة تجنيده وأن عليه أن يبدأ حياته. لم يفكر في البحث عن عمل، أو في تجهيز الشقة، بعد أن اتفقنا على أن يتزوج فيها، ويعيش في المكان الذي تربينا فيه. كان يتصرف كأنه ناس، مدفوع بنوع من القصور الذاتي، إلى حياة فارغة. يصحو من النوم بعد الظهر، ويبقى في البيت حتى المساء، ثم يخرج ويسهر مع أصدقائه حتى الفجر.

حكت لي أمي عن قلقها من تصرفاته. قالت إن عقله لن يعود إليه إلا إذا تزوج وفتح بيتا. لكن مشاكله تصاعدت باستمرار، وأخذت، في كل مرة، صورة أكثر جدية. كنت ألمح الخوف يطوف بملامحها، وهي تحكي عن أنها، في الليل، تحس به يتطوح، ويدندن، وهو يبحث عن لقمة يأكلها، وفي الصباح تجد الأطباق " مدلوقة ". أنها تخاف كل ليلة، تبقى خائفة إلى أن تسمع باب غرفته ينغلق. في الأسبوع الماضي قال

لها وهي تحدثه عن إنه يجب أن يفيق ويفكر في مستقبله: " اسكتي يا ست أنتي وسيبيني في حالي ". كانت لا تصدق أن ابنها الذي حملته بطنها يقول لها يا " ست أنتي ".

بعد ذلك لم تعد تستطيع التحمل. في كل مرة أزورها، يدور أغلب حديثها عن مشاكل " حسام ". نادرا ما سألتني عن زوجتي أو ابني الصغير أو حياتي. في كل مرة يكون الموضوع مختلفًا. تعبت من طريقتها، فقلت لها ذات يوم، إنه حر وقد أصبح رجلا، وإن لي مشاكلي وحياتي. صمتت طويلا كأنما تدفعني إلى مراجعة حديثي أو الاعتذار عنه.

قالت إنها تعرف متاعبي، وعملي طوال اليوم؛ في الصباح في وظيفتي وفي المساء في الصيدلية، ولن تثقل علي. كل ما تطلبه هو أن أتحدث معه بجدية – رجل لرجل – عن ضرورة أن يجد لنفسه عملاً. لقد تعبت من الكلام معه كما قالت، وعرجت، كالعادة، على منطق ألمها التي لا تتغير، حيث تتوقف عن تلك الكلمات غير المتوقعة التي ينطق بها وتترك فيها ألما لا يطاق. في آخر مرة أخبرته أنها اتصلت بخاله، وأنه مستعد لمساعدته في البحث عن عمل، كما فعل معي، قال لها إن " أخوك " لم يعد بيده شيء، وإنه إثر فضيحة رشوة في البنك عزل من منصبة. لم تهتم بما في حديثه من اتهام لأخيها بالفساد، لم تهتم بشيء قدر اهتمامها بأنه لم يقل " خالي " وقال لها " أخوك ". سبب لها ذلك حزنا شديدا وفي نفس الوقت كان مخيفا.

ما واجهته في تلك الأشهر كان اختبارا لكل ما عاشت من أجله، كثيرا ما قضت الوقت تفكر في الماضي خائفة أن تكون قد قصرت في مسئوليتها، هي التي، رأت نفسها على الدوم، وقد كدت من أجل تربية أولادها بجانب زوجها، وعملت كل شيء حتى اضطرت في نهاية السبعينات – عندما كبر الأولاد، وثقلت المصاريف وأكل الغلاء المرتب البسيط – أن تتعلم تطريز المفارش وتبيعها سرا عن طريق بنت أختها التي تعمل في التأمينات. كانت تصر على أن يبقى الأمر سرًا مع أنهم، تقريبًا، كانوا يعرفون أو يتغافلون عن المعرفة. تقوم في الفجر وتنهي أعمال البيت، وتجهز المطبخ، حتى ميعاد نزولهم، ثم تبدأ في أعمال تطريز تستمر إلى الثانية ظهرا.

لم تجد محاولاتي للتخفيف عنها، فقد كانت تعرف أن ادعائي بأنه عاد من حرب الخليج متعبا، لم يعد مناسبا، فقد مضى أكثر من عام على رجوعه وأحواله تتدهور، ومرضه الذي بدا غامضا في البداية واضطررنا بسببه، أن نعرضه على أطباء في القاهرة، لم يكن غير التهاب في القولون، لم يعد يشكو منه. في الأصل كانت تعرف أنني أحاول التخفيف عنها، بأدلة لم أكن مقتنعا بها. من جهة أخرى لم أكن أرغب في إقناعها، كنت أحاول أن أبعد عنها إحساسها بأنها خسرت، ورأت جهدها يتعفن على سطح حياتها؛ لم يثمر الثمرة الذهبية التي انتظرتها.

كان عليّ أن أتحدث معه حول البحث عن العمل حتى تهدأ مخاوفها قليلاً. يوم الجمعة قطعت الطريق من شقتي في منطقة سوق الخضار،

إلى بيتنا على أطراف المدينة. كنت خائفا من تلك الكآبة التي غدا " حسام " يلقيها على زيارتي الأسبوعية، وبعد أن كنت أنتظر هذا اليوم، أصبحت أخشاه. في عدد من المرات تعللت بالتعب من العمل وفضلت قراءة جرائد الصباح في مقهى خال بجوار المحطة، بعيدا عن شقتي وبيتي.

في ذلك اليوم فتحت لي " نورا " الباب، وطفلها على صدرها. كانت قد وصلت حالا، كما قالت، وسمعت صوت أمي في المطبخ، تسألني عن إفطاري وهل أرغب في كوب شاي. لم تكن نافذة الصالة مفتوحة. الظلام المضاء باللمبة النيون كان كئيبا مثله مثل رائحة الهواء التي اختزنت أبخرة الأجساد والأثاث طول الليل. توجهت إلى النافذة وفتحتها. وضعت " نورا " طفلها في مشايته. رحت أراقبه وهو يدور حول كراسي الصالة ويتوقف في ضوء الشمس الأصفر الزاهي.

عندما خرج " حسام " من غرفته، أدركت ما كان يقال حول التشابه بينه وبين أبي. بدا لي التطابق تاما، وهو يخرج من غرفته ووجهه مغطى بالعرق، وعليه تلك التكشيرة التي تعلو الوجوه الخارجة من ظلمات النوم. أدهشني هذا التشابه، كما لو كنت أراه للمرة الأولى. تكمن ملامح الأب خلف ملامحنا، كلما كبرنا زاد حضور الأب فينا. نفس الشعر الأسود الكثيف والأنف الطويل والعيون البنية الواسعة والحسنة الكبيرة كحبة الحمص تحت الذقن.

ما جعل هذه الملامح متطابقة على هذا النحو هو العبوس الذي ظل يسكن ملامح الأب، لكن عبوسه كان عبوس رجل يحمل مسئولية

كبيرة، وجد نفسه في وضع خطر بعد أن أخذ قرارا ببناء بيت، اعتمادا على نصيب من ميراث، ومرتب كان يأكله التضخم في ذلك الوق ت؛ كان عبوسًا مليئا بالمعنى، عكس عبوس " حسام " الفارغ الذي يغ ص بالضيق والتبرم، ويترك إحساسًا راسخا، بأنه لا معنى لشيء.

كان " حسام " يستغرق وقتا طويلا في طقوسه الصباحية؛ يتنـ اول إفطارا خفيفا وهو واقف في المطبخ، ويأخذ كوب الشاي وعلبة السجائر والجرائد القديمة ويبقى طويلا في الحمام. في ذلك اليوم، أعـ د لنفسـ ه فنجانا من القهوة وجاء ليجلس معنا في الصالة. كانـ ت " ذ وورا " قـ د ذهبت إلى السوق لتشتري " خضار الأسـ بوع "، وأمـ ي تجلـ س فـ ي كرسيها المعتاد بالقرب من النافذة. لم ينظر حسام إلى أيّ منـ ا. كـ ان يعبث بأظافره والسيجارة في فمه. كلماته قليلة جدًا. من حـ ين لآخـ ر يرفع بصره، وينظر إلى الزجاج المغلق للنافذة، كأنه يندهش من وجوده بين أسرته، وربما – كما ظننت – يسخر من ثرثرتنا حول الشبه بينـ ه وبين أبيه. قام وضبط محطة الراديو التي كانت تصـ در صـ فيرا لـ م نسمعه. ثم دخل غرفته، دون أن يلتفت إلينا.

عندما دخلت الغرفة بعد قليل، رأيته ممدا على السرير، يحدق فـ ي البيادة المعلقة على مسمار مدقوق في الحائط. تراءى لي أن تلك البيادة هي التي تحمل السر. كانت معلقة في نفس المكان، لكنها غدت اليـ وم حية لأول مرة، كما لو أن روحها قد صحت. لامعة مصـ قولة الجلـ د، كأنه يلمعها كل يوم، ويعلقها بوقار. الوقار الذي يكتـ ه لهـ ا يحيطهـ ا كإطار، وتأمله لها يكسبها سرًا خاصًا. بدت كحيوان محبوس، سـ اكن،

لكنه متربص، قادر على الانقضاض في أي وقت. كائن له وجوده الخاص: مقدمة الفردتين متماستان، والكعبان منفرجان، ورقبتها الطويلة المجعدة اللامعة، تنتظر رأسها المقطوع حتى تتحرك. في الصمت، كانت تشع، كأنها الكائن الوحيد الموجود، خيل إلى أنها تسيطر على فضاء الغرفة، ربما بسبب أنها معلقة في مواجهة الباب وحسام يوجه إليها نظره.

في ذلك اليوم تحدثت معه بخصوص بحثه عن عمل، وحاولت أن أقنعه بأنه لن يخسر شيئا إذا زار خاله. ظل صامتا، فأغراني ذلك بالحديث عن أهمية أن يأخذ حياته بجدية. في الحقيقة لم أكن مقتنعا بما أقول إلى حد ما، وظل هو مثبتا عينيه على البيادة، ينصت؛ وإن رد، فلا يرفع نظره عنها. في البداية بدا هادئا وقال بصوت خفيض إنني أعرف أن خالي لا يملك الآن غير الكلام، وعندما تماديت في أداء الدور، وتحدثت عن أهمية قيامه بواجبه، عن أهمية " السعي "، بدأت ملامحه تتبدل، وظهرت توترات على جانبي فمه؛ تلك الأطياف التي لم يكن يسمح لها بالوجود، ولأول مرة أدرك صحة ما قالته أمي حول مخاوفها، عندما اعتدل في جلسته وحول نظره عن البيادة وقال:

" اسمع "

ثم صمت قليلا:

" مش عاوز أروح لحد. خليك في حياتك. أنا كبرت ومحدش وصي عليه"

نبرة كلامه هادئة هدوءا معاديا، كأنه قد فكر طويلا في الأمر، بـ دا مقتنعا بما قاله قناعة نهائية. قام ليأتي بعلبة السجائر من فوق المكتب. صوته خال من الظل الذي يحيط بحديث الأخوة؛ الظ ل الـ ذي يم نح الكلام الخشن مسحة ودية؛ لأنه يتشكل من أطياف رفقة العم ر، م ن المشاوير المشتركة والأكل من نفس الأطباق، وارتداء نفس البنطلونات والقمصان واستعمال نفس الأشياء.

خيل إلى أن الأمر به قدر من اللبس، وأنني أبالغ قليلا في تق ديري لدلالة كلامه. لكنه حسم كل شيء عندما استعاد الحديث قائلا:

" ما بحبش دور الأب. أنت عارف انك ما بتهـ تمش إلا بنفسـ ك. وبتعمل الحاجات دي عشان ترضيها "

لم يكن في الرسالة التي يريد أن يوصلها أي لـ بس الآن. شـ عرت بالغضب والحنق عليه وعلى أمي التي دفعتني إلى التودد إلى " عيـ ل خايب " لا يعرف مصلحته. لكن غضبي كان، في الحقيقـ ة، موجهـ ا ضدي، ضد تلك النزعة التي تدفعني أن أفعل ما يطلب مني. كان الأمر يضرب بجذوره عميقا في تجربة فشلي في تحقيق حلمي؛ تجربة فقدي لوظيفتي كمعيد في الكلية عندما فقدت ترتيبي في السنة النهائية. وعندما داويت الأمر بالسفر للعراق وكنت على وشك عبور الحدود إلى تركيا، ومنها إلى العالم المفتوح، مات أبي في تلـ ك اللحظـ ة، واضـ طررت للعودة، وبدا لي منذ ذلك الوقت أنني خسرت كل شيء. في أعمـ اقي، كانت حريتي مقرونة بأن أنفذ حلمي، ولكوني لم أستطع تنفيذه، فما كان

علي غير الرضوخ، " ما دمت قد فشلت في تنفيذ تلك الأحلام فلست جديرا بالحرية ". لم يبق لي غير الطاعة وتنفيذ ما يطلب مني.

هناك شيء تم كسره خلال ذلك الحوار؛ قبل ذلك كنت ما أزال أعيش في الأوهام. في ذهني ما تزال قائمة تلك الأطر التي تحدد طريقة الحديث والسلوك القديمة؛ كنت ما أزال مؤمنا بأن هناك طريقة معينة يتم بها خطاب الأب وابنه، والأخ وأخيه، لكن " حسام " قد ألقى بطوبة في زجاج هذا الوهم وشرخه.

غادرت الغرفة دون كلمة. لم تكن أمي في الصالة. لمحتها في الغرفة الداخلية تهدهد ابن " نورا ". ضوء الشمس ناصع في الشرفة ينعكس على فرش غرفة الصالون. قرآن الجمعة يتردد في الصالة، وفي سماء المدينة، معيدا ملامح أيام جمع تلاشت؛ أيام جمع كانت لها طقوسها الخاصة في هذا البيت. بدا لي أن البيت لم يعد به حياة؛ أنه مجرد وعاء لحياة قد جفت.

جلست في الشرفة على كرسي من البلاستيك. رأيت رجلا عجوزا يخرج من باب البيت المواجه، وبعض الشباب بجلابيب بيضاء وشعور مبللة بالماء يتوجهون لصلاة الجمعة في مسجد يحتل ناصية الشارع. ضوء الشمس ينصب بشكل عمودي تقريبًا، ويجعل الظلال تختبئ في الزوايا. بدا لي أن في جو بيتنا أمر مخيف. صورة أخي يحدق في البيادة تعيد نفسها في ذهني فارغة من المعنى؛ وفراغها من المعنى يشكل معنى غامضا وهذا اللا معنى له وقع الخطر؛ حس لا يمكن إمساكه، يلوح كجو سري به الكثير من الحيرة والعنف الكامن.

سمعت " نورا " تتحدث مع " حسام " في الصالة. وسمعت بكاء الطفل وصوت أمي وهي تتحدث أيضا. بقيت في الشرفة، حتى رأيته يخرج ويمشي في الشارع متمهلا، كأنه تحت تأثير مخدر. جاءت نورا، ثم جاءت أمي وفرشت كليما، وجلستا في المساحة المضاءة بالشمس، وراحتا تفرغان حبوب البسلة من القرون الخضراء. دخلت أمي لتستريح، فجاءت " نورا " وقالت إنه حكي لها ما حدث. بعد صمت قصير بدأت تتحدث حول أنني الكبير ويجب علي أن أتحمل، وأن أقدر ظروفه، فقد كان حظه سيئا في الجيش. من أول يوم وصل وحدته والقائد يكرهه لله في لله. ثم جاءت الحرب وتم اختياره ضمن المجموعة التي ستسافر إلى حفر الباطن. كانت الحرب بالنسبة لزملائه فسحة، (حسب رأيها) أما هو فعاش في عذاب ليس من الحرب بل من اضطهاد القائد. وبعدما انتهت العمليات العسكرية، انفجر لغم في واحد من أصحابه، لم يجد القائد غير ره ليجمع أشلاء صاحبه، (بالأمر). ظل أسبوعا لا يستطيع أن يضع الأكل في فمه. نقلوه للوحدة العلاجية، لكنه ظل مريضا؛ كلما وضع لقمة في فمه يرجعها.

أدت هذه التفاصيل، التي كنت أسمعها لأول مرة، إلى مزيد من الغضب؛ لأنه لم يحكها لي، ولأنه يبدوا نافرا وبعيدا ومغلقا على أسراره. لم أستطع أن أفهم ما قالته " نورا " علي أنه مبرر لمشاكله. أخبرتها بأن زملاءه في الجيش عاشوا نفس الظروف، وربما أكثر، فهل يتصرفون مع أهلهم بنفس الطريقة؟ ثم إن هناك شبابا لم يسافروا إلى الحروب لكنهم يتصرفون مثله.

* * *

أثار موضوع البيادة اهتمام " ماجدة ". كانت تنظر إليّ بدهشة وهي تسمع تلك الأحداث. في بعض المرات سألتني ع ن تفاصـ يل تخ ص البيادة، ثم طلبت مني، خائفة ومحرجة، أن أطلعها على صورة لأخي، وعندما رأت صورته قالت، إنها تخيلته بطريقة مختلفة، وبدت في تلك اللحظات متسامحة مع تهاوني الديني، وكأنما تجذبها الأحاديث أكثر من أي شيء آخر.

بعدة عدة أشهر من عودته من الحرب، أخرج من الحقيبة التي عاد بها من الجيش " بيادة " عليها آثار طين، ووسخ لازق عل ى أطرافه ا كسائل شمعي. كانت حذاء جندية من نوع جيد من الجلد، بنع ل م ن كاوتش مرن متموج السطح. ألقاها بجوار سريره عدة أيام. رائحة الجلد قوية، بها عفن، فاح في أرجاء الشقة، ورغم ذلك فقد ترك البيادة ف ي مكانها، حتى بعد أن قالت له أمه:

" يا بني ما تتصرف في البتاعة اللي ريحتها تخنق دي "

ينظر إلى البيادة ولا يجيب؛ نظرات عميقة، إلى كائن حي لا يمكن التفريط فيه، حيوان رباه المرء وارتبط به، ولن يسمح لنفسه بالانفصال عنه. كان صمته في اللحظة التي نظر فيها إلى البيادة مس تغلقا عل ى الفهم، وغريبا علينا، به نوع من الصداقة والود.

ذات يوم رأته أمي وقد فرش صحيفة قديم ة ف ي البلكون ة وراح يغسل البيادة بالبنزين ويلمعها. قلنا إنه سوف يعطيها لأح د أصـ دقائه المجندين، أو على أسوأ الأحوال، سوف يلبسها في الشتاء الذي تتحول

فيه منطقتنا إلى طرقات موحلة لا يمكن اجتيازها. خطر في بال أمي أنه قد يرتديها كحذاء، فهو من وجهة نظرها يمكن أن يفعل أي شيء، فنبهته ألا يفعل، كانت خائفة على نحو ما. ربما بسبب الرائحة التي فاحت منها، ربما بسبب مشاعرها الغامضة، أو نظرته العميقة إلى البيادة، فهي ترى في تلك النظرة، نفس الشرود الشيطاني الذي تراه في عينيه وهو عائد في الليل من سهراته في الخارج.

لكنه لم يرتد البيادة ولم يعطها لأحد أصدقائه. شبك رباطها وعلقها على الحائط بعد أن نزع صورة له مع أصدقائه في إحدى رحلات الإسماعلية أثناء سنوات الجامعة. اندهشنا في البداية واعتبرنا الأمر نكتة. في الحقيقة دارينا قلقنا من ذلك الحذاء المعلق على حائط بيتنا. أمي كانت معاناتها صامتة، وقلق نورا أخذ سمة مازحة ومناوشة في بعض الأحيان. لم نطلب منه تفسيرًا، لأننا أدركنا مسبقا أنه لن يوضح لنا ما يفعل، سيندهش من دهشتنا ويختزل الموقف إلى بضع كلمات بلا معنى، وعندما يتعب سيقول كلمته المعتادة: " مش عارف" ".

ظل سر تعلقه بالبيادة بلا تفسير، ومن جانبنا تعودنا على القلق الذي يسببه موقف غير متسق مع نسيج حياتنا، لكن على ما يبدو كانت " نورا " أكثر قلقا منا، ولم تقبل صورته كصامت معزول لن يبوح بما يدور في فكره، فظلت البيادة تقلقها وسلوكه الصامت يدفعها إلى مناوشته.

تعرفنا على تلك الصلة الوثيقة بينه وبين البيادة، في ذلك اليوم الذي وصل المزاح بنورا أن تقسم بأنها سوف تلقيها في الزبالة. كانت في

نوبة من العشم والمرح الأخوي (فهو أخوها الصغير وهي ربته كما تزعم دائما عندما تدافع عنه) قامت نورا ومدت يدها باتجاهه. لم يتوقع أي منا ما حدث. ولا سامحته أمي بعد ذلك؛ أمسك يد " نورا " التي كانت قد لامست البيادة، وفي صوته بحة غضب أسكتتنا جميعا، قال:

" اوعي تمدي إيدك عليها تاني "

توقف جسدها عن الحركة في وضع يدها الممدودة قليلا إلى أعلى، وللحظات بدت كأنها صورة من شريط فيديو تم توقيفه، غير مصدقة شكله الغريب وارتعاش شفتيه. استعادت الحركة. خرجت من الغرفة بسرعة وصوت ثوبها المنزلي يتردد في صمت بدا كأنه صمم من أجل تلك اللحظة. قام حسام وارتدى ملابسه وترك البيت.

لم نتحدث منذ ذلك الوقت عن البيادة، لكن أمي، استمرت غير مصدقة. فكانت، أحيانا، تهمس لي – كأنها تحدث نفسها – بأنها لم تر في الدنيا، أحدا يعلق بيادة على الحائط بدل أن يعلق صورة أبيه الذي شقي طول عمره من أجل أن يعلمه ويكبره ويجعله رجلا. حكت لي ذات يوم عن أنها أحبت أن تسر له بما في نفسها، فقال لها إن أحدا لم يطلب منه أن يشقى أو يبني هذا الجحر، وليته لم يفعل، فلا البيت نفعنا ولا التعليم نفعنا.

كانت تحكي لي تلك الأمور غير مصدقة، وتقول إنها تعتقد أن كل هذا من " الهبابة "، التي يظل يتطلع إليها طول النهار كأن عملا معمول

له. كانت قد بدأت تسعل في تلك الفترة، ورغم ذلك لم نتحدث عن رائحة دخان السجائر التي ظلت تسكن الشقة، فما إن يدخل المرء غرفة حسام حتى يشم تلك الرائحة؛ عطنة كأنها سكنت الجو. في الصباح تبدو الرائحة الجديدة للسجائر خشنة ومثيرة للاختناق، وبسبب حساسيتها للروائح فإن التواجد الدائم لهذه الرائحة في البيت، كان يضاعف من إحساسها بأن الحياة تسير في طريق خاطئ.

يبدو أن حدس أمي كان صحيحا؛ ففي الأشهر التالية حدثت أمور أكثر سوءا. كنت راجعا من عملي في الظهيرة، رائحة تحمير الفراخ جعلت شقتي الضيقة أكثر اختناقا. على الغداء قالت زوجتي إن " نورا " اتصلت بي وطلبت أن أمر عليها. حاولت أن أعرف ماذا تريد، ولكن زوجتي – بحكم العلاقة المتوترة مع أختي – لم تخبرني بما يفيد، وقالت نافدة الصبر: " عاوزاك تمر عليها وخلاص ". فكرت، أثناء تمددي على الفراش في غرفة النوم، أنها قالت " يمر "، ولا يتصل، وهذا معناه أن " حسام " أثار مشكلة أخرى.

كانت الغرفة مظلمة، وأدركت أنني متعب وغير قادر على تحمل حياتي، كنت أغادر بيتي في الخامسة مساء للعمل في الصيدلية، وأعود في الثانية عشرة، وربما بعد ذلك. بدا لي وقتي ضيقا لن أستطيع اقتطاع أي جزء منه لأتحدث مع نورا. (اكتشفت أثناء حكايتي ذلك الموقف، وماجدة تنظر إلى بعيون متفهمة أن الضيق لم يكن صفة للوقت بل للذات، لكنني لم أقل لها ذلك) حاولت النوم ساعة واحدة بلا جدوى. قمت متعبا. ركبت سيارة أجرة، شقت طريقها إلى الشارع

الرئيسي الذي كان ازدحامه قد خف. لم يكن هناك " سرفيسات " واقفة أمام مبنى التأمين الصحي الجديد، ومن ميدان المحطة عبرت السيارة إلى شرق المدينة، ثم إلى منطقة العمارات الجديدة، التي تسمى فيها الشوارع بالأرقام.

وصلت إلى بيت " نورا ". لم يكن زوجها موجودا، وبدت حائرة وأنفها محمر ووجهها به آثار البكاء. كانت تربط شعرها بإيشارب داكن اللون جعل وجهها مضيئا. أخبرتني بأن " حسام " جاء إليها وأخذ منها خمسمائة جنيه. بدا لي أنها لم تقل كل شيء. طلبت منها أن توضح لي لماذا هي منهارة على هذا النحو إذا كان الأمر لا يتعدى خمسمائة جنيه أخذهم أخ من أخته على سبيل السلفة؟ وذكرتها بتلك السرية التي طالما أحاطت علاقتهما وحمايتها الدائمة له. أقسمت أن ما حدث هو ما حكته لي، لكنها خائفة خوفا لا تعرف سببه، خوفا حقيقيا، كأن " حسام " سيحدث له مكروه، هي ترى ذلك في وجهه. سبب اضطرابها، كما قالت، هو الذهول الذي ظهر على وجهه. بدا لها أنه مدين بمبلغ كبير ومهدد، وكان " في حالة غير طبيعية " قالت: " الفلوس تروح في داهية " ولكنها خائفة مما سيفعله بالفلوس.

رغم كل ما حكته لي " نورا " إلا أنني لاحظت كذبها، لأنها بكت بشدة عندما كنت على وشك أن أغادر البيت. بدا لي بعد ذلك أنه ربما هددها أو أخذ الفلوس منها بغير رضاها، أو اضطرها أن تسلف، أو تطلب من زوجها أو تكذب عليه، فلم تكن " نورا "، من وجهة نظري، يمكن أن تنهار بهذه السهولة.

لم يساعدها في شيء غضبي الذي صببته على طريقتها هي وأمي في تدليله، لم يخلصها من مخاوفها. لم أر في ذلك اليوم غير عجزي عن التصرف، وعدم قدرتي على مساعدتها في تهدئة مخاوفها أو استرداد نقودها. لم أكن عونا لها كما انتظرت. حاولت أن تستعيد حساء كان يتبدد بالمسئولية، قائلة إنها تقدر ظروفي، وإرهاقي في العمل، ولكن أنا الأخ الكبير ويجب علي أن أتكلم معه.

تحت إلحاح " نورا " اضطررت مرة أخرى أن أتحدث معه. كانت أمي تكنس البلكونة، و" حسام " نائم كالعادة. لم أنتظره. دخلت الغرفة وجلست في الظلام. بمجرد أن شعر بوجودي، قام ودخل الحمام. عاد يحمل كوبا من الشاي، وجلس على طرف السرير، وأشعل سيجارة. كان يتصرف بنفس البرود، والحياد، وقد أدرك ما جئت من أجله.

رد علي بطريقته الهادئة قائلا إنها قلقة من أجل فلوسها، وإنه سوف يردها في أقرب وقت. عندما قلت إن موضوع الفلوس ليست له كل تلك الأهمية، انحرف بوجهه تجاهي، كأنه لم يسمعني. لمحت ما عرفت بعد ذلك أنه علامته الخاصة على السخرية من أفكار زائفة. كانت نظرته الخاطفة لها وقع كلمة: "بذمتك؟ " مما جعلني أفكر في كلماتي، وكيف تفقد أمام برودة، قدرتها على الإقناع.

استدركت شارحا له أن ما يهمنا هو ماذا سيفعل بالفلوس، قال – متواطئا مع أمر يعرف زيفه – إنه سوف يشترك مع أربعة من أصدقائه في مشروع صغير لبيع إكسسوارات البنات، سوف يشترون البضاعة بالجملة ويعرضونها في كشك يملكه أحدهم أمام الجامعة. لم

أصدق الحكاية وهو لم يقلها ليقنعني. كان فقط يفض مناقشة بأسهل طريقة ممكنة، لأنه لا يرغب في وجع الدماغ، ولأنني عرفت ذلك، فقد اقترحت عليه متخطيا مشاعري المضطربة، أن يفكر في السفر، لكني كنت أعرف قبله، أن فرص السفر أصبحت ضعيفة جدا، فالحدود أصبحت مغلقة، حتى العراق لم يعد السفر إليها متاحا، وعندما اقترحت عليه – غير واثق من كلامي – أن يسافر إلى لبنان كما فعل أخو زوجتي، كان رده جاهزا، فقد أخبرني بأنهم " بيدخلوا تهريب، ويرجعوا ترحيل".

أدركت ذلك الظل الخفي للرغبة في التخلص منه التي ظهرت في حديثي عن سفره، نظرته هي التي فتحت عيني على ما كنت أشعر به دون وعي، كانت رغبتي في سفره قد ترجمت في خياله إلى رغبة في التخلص منه، ولأنني لمحت هذا الطيف عندما تحدثت معه، فقد غادرت الغرفة، مدركا أنه قد أصبح مشكلة بلا حل.

لم يمض شهر على تلك الواقعة حتى جاءت آخر الوقائع التي قضت على كل شيء، واضطرته لترك المدينة وعدم حضور جنازة أمه التي ماتت بعد ذلك بعدة شهور. كنت في العمل وأبلغني موظف الأمن أن لي تليفون من البيت، تخيلت أنها زوجتي وأنها تريد أن أشتري لها أشياء أثناء عودتي. لكنه كان صوت أمي؛ خافتا ومختنقا وهي تقول:

" تعالى على طول يا ابني ما تتأخرش "

صوتها تركني ساكنا سكونا بلا معنى بضع دقائق بجوار التليفون، خرجت بعدها إلى الشوارع. في حالة الذهول تستقر المشاهد البصرية بحدة لأن الداخل يكون مغلقا بإحكان، الصور البصرية تعبر أمام العين كأنها لا تخص أحدا، ومع ذلك تحتفظ بنوع حاد من الوضوح. كان الزحام النهاري للمدينة صاخبا أمام كلية التربية. سرت ببطء في زحام الطلاب أمام مدخل الكلية. عندما انحرفت في الشارع الرئيسي الذي يقسم المدينة قسمين، كانت السيارات تسير بسيولة نسبية، وأشجار البونسيانا عارية من الأوراق كأنها كائنات خشبية مناسبة لروح المدينة، خالية من اخضرارها الصيفي وبعيدة عن إدراك الناس، كجزء من الديكور لمنظر غريب. المسافة بعيدة جدًا حتى بيتنا. كان البعد مناسبة للتنفس، لهضم المخاوف التي حملها صوت أمي.

عندما جلست بجوارها في الصالة، أخبرتني بصوت هادئ به رعشة أصبحت جزءا من نبرته، بأنها قامت من النوم فوجدت الدولاب مفتوحا ولم تعثر على الثلاثة آلاف جنيه التي احتفظت بها بعيدا عن الرغبات والأيدي والتفكير، وأحاطتهم بغلالة من مخاوفها من الزمن.

قالت إنها لم تكن تتصور أبدا أن تبلغ به الجرأة أن يمد يده إلى النقود التي احتفظت بها لكفنها. كنا نعرف أنها تحتفظ بثلاثة آلاف جنيه، نصيبها من بيع بيت قديم، حصل أخوها عليه وبناه عمارة كبيرة. دائما ما صرفت تفكيرنا عن هذه النقود قائلة إنها ثمن كفنها. كلمة الكفن التي استخدمتها كثيرا عند الحديث عن تلك النقود، محت صفة المال عن تلك الأوراق المخبأة في مكان ما في الدولاب وحولتها إلى

كفن. لهذا كان ذهولي أكبر من ذهولها، وهي تقول إنه كان يعرف أنها فلوس كفني. أعادت الكلمة مرات كثيرة غير مصدقة، وقالت إنها تعرف أننا لن نتحمل مرضها، لن نتحمل المصاريف الباهظة التي يتكلفها المرض هذه الأيام، كانت تخاف من " بهدلة " نهاية العمر، وها هو، ابنها الذي أنجبته من لحمها يحرمها من ذلك الأمان البسيط، من أن يشعر المرء أن الأيام القادمة خالية من القلق، حسب تعبيرها، ليتها ماتت قبل أن ترى ذلك.

رغم حديثها غير المتماسك، والذي قطعه الصمت مرارا، كإيقاع لذهول لا تملك القدرة عن التعبير عنه. فإن مظهرها الخارجي كان متماسكا، ونبرة صوتها لم تختلف – إلا في هدوئها النسبي – عن شكواها قبل ذلك بعدة أيام من أنه يشعل سيجارة من سيجارة. ما حدث قد حدث، وهي الآن، تحمل المصيبة في صمت، قالت موجهة الكلام إلى نفسها: " كان يقول لي إنه محتاج فلوس ". تفرد كفها متعجبة، كأن ما حدث لا يخصها، كأنها تتعجب لمصيبة شخص آخر. لمحت خطوطا في الهالات الداكنة تحت عينيها، والزوائد الدهنية على رقبتها بدت مثل رؤوس الدبابيس، وجسدها كامن في الكرسي كأنه جزء منه. لم تخف عني أي شيء في ذلك اليوم، قالت إنها لا تتمالك نفسها من الخوف، ستموت علي كل الأحوال، حتى لو تسولنا ثمن كفنها، لكنه يخيفها، ولن تستطيع أن تنام معه في بيت واحد.

قالت بصوت خافت يشبه حوارا داخليا:

" لما ابنك يسرقك تبقى القيام هتقوم "

حيرني ردّ فعلها تجاه المصيبة. لم تكن تريد أي شيء، إلا أن تطلعني على ما حدث. قالت إنها تعرف ظروفي ولا تطلب مني شيئا. فلن تدخل ابنها السجن. هي أم ولن تفعل ذلك. فقط أردات إبلاغي أنها قررت أن تقيم في شقة "نورا" عدة أيام، وكان لابد أن تخبرني حتى لا أشعر أنها تخطتني، فهي تعرف أنني سأحملها على رأسي لكن ظروفي وظروف زوجتي وشقتنا الضيقة لا تسمح لي بذلك. في تلك اللحظة بدا لي أنها في حوار داخلي، فقد كانت تقدم – لنفسها – مبررات لعدم مقدرتي على تحمل إقامتها في شقتي، كأني أتحدث في داخلها، في حوار لا يظهر إلا نصفه فقط، مما دفعني إلى الظن بأنها لا تراني.

هدوء حديثها انتقل إليّ، لكنه كان يلمع بخطوط من الغضب. لاحت لي، كبثور العفن على سطح رغيف، تلك الهموم الصغيرة التي تغطي حياتي. كل ما أقوم به بارد لا يحمل أي معنى. تذكرت اللحظة التي حملت فيها طفلي بين يدي؛ تلك القطعة من اللحم التي لم أشعر تجاهها بغير الغربة. السطح البارد المستوي لحياة هادئة مملة إلا غطاء يتراكم تحته غضب كسم يسري في الجسد بالتدريج. كنت في الحقيقة غير قادر على شيء، غير قادر على تأمل مشاكل أخي ولا التعاطف مع أمي، بل لمست في ثنايا أفكاري نوعا من الحسد له على قدرته أن يعيش حياته كما يريد.

نظرت أمي إلى بعيون صافية. وجهها بادي الإرهاق. شعرت بأنها تستعد لموتها، وأخافتني الفكرة الخالية من المشاعر، كأنها قد أصبحت

هي الأخرى عبئا. تذكرت حديثي الأخير مع حسام وكيف كان حديثا في ظاهره حول السفر وفي أعماقه، كمنت رغبتي في التخلص منه. كنت أشعر الآن بنفس المشاعر تجاه أمي وزوجتي وكل شيء، وكأني أحدق في هاوية.

استندت بيدها على ذراع الكرسي، وجاهدت كي ترفع جسدها الثقيل. شدت ملابسها التي التصقت بجسدها، وخطت صامتة باتجاه غرفتها، وسط تيقني من أنها لم تشاهدني ولم تتحدث معي.

دخلت غرفة "حسام" بوهم غير عقلاني إنه قد يكون نائما. جلست على السرير الذي كنا ننام عليه معا. بقايا الحياة القديمة تبددت. كانت هنا حياة ثم مضت. لم يأخذني الحنين إلى تلك السنوات، بل كرهتها. كان الضوء يزداد حدة في شهر مايو، وتهل نفس الرائحة من نفس النافذة. في ذلك الوقت من كل عام أظل محبوسا بالأسابيع لا أرى الشارع، أذاكر دروسي؛ درجات السلم التي سوف أصعد عليها لأنتقل إلى حياة أخرى. نفس الضوء تقريبا ونفس السكون.

كان الدولاب مفتوحا وخاليا من كل ما يخص أخي. عرفت أنها دخلت الغرفة وفتحت النافذة ورتبت السرير، لكنها أنكرت أنه أخذ ملابسه وأشياءه ورحل. اندهشت من عدم ذكرها أي شيء حول رحيله، وبالذات حول اختفاء البيادة التي لم تكف عن الحديث عنها في الأشهر الأخيرة، وحملتها كل ما أثاره من مشاكل. كانت البيادة هي التي تحمل السر، الذي لن تعرفه أبدا، فيها يكمن سر اعوجاج ولدها، فكل الكلمات الغريبة والردود غير المتوقعة كانت تأتي، في ظنها، من تأمله الطويل

لذلك الحذاء الميري. لقد صنعت لنفسها تاريخا وهميا تبدأ فيه الشرور من يوم أن علقت تلك " المحروقة " على احد جدران بيتنا. يبدو أنها لم تهضم هذا الأمر أبدا.

لم أستطع أن أدخل غرفتها. وقفت في الصالة حائرا، نظرت في ساعتي. كانت الواحدة والنصف. " ميعاد الانصراف "، قلت في نفسي ساخرا وأنا أهبط السلم في طريقي إلى العمل.

تعرفت أثناء حديثي مع " ماجدة " على طبيعة القلب الذي أحمله. رأيت البثور التي تغطي سطحه، الكسل وعدم الاهتمام بالحياة الذي يغطيه. أصبحت أثناء حديثي معها أدرك ذلك تمام. لكني أخفيته عنها. زخرفت الحكاية، التي ظهرت فيها محبا، مسئولا، شخصا يمكن ائتمانه على الأسرار، ولن يتخلى عن واجباته مهما حاول.

كانت حكايتي طريقة خفية لغزل غير مسموح به يبرق تحت التفاصيل. لم يكن المقصود أخي ولا موت أمي ولا حزنها، بل كان المقصود إثارة مشاعر " ماجدة ". لكن الحكي يعاقب المرء. إثارة موضوع أخي وإعادة تجسيد الأماكن والأحداث، حركت المشاعر والأفكار الراكدة، والجو وتفاصيل الحياة التي لم تعد موجودة. كنت أندهش أثناء حديثي من أن أمي التي أحكي عنها لم تعد موجودة. الحكي يعطي الوهم بالوجود، وبغض النظر عن النص الذي كنت أزخرف حوافه أثناء حكايتي لماجدة، فإن ظلال المشاعر التي لم تحك ظلت تحوم كأرواح الموتى في الداخل، ويبدو انه لم يكن أمامها من وسيلة للتواجد غير ارتداء ذي الشفرات والظهور في الحلم.

مازلت أذكر الحلم الذي حلمته في ذلك الوقت بكل تفاصيله، حتى أنني أشك أحيانا في كونه حلما، كان حكيا مضادا لما حكيته لماجدة. بالطبع لم أكن قادرا على تفسيره أو فهمه، لكن الرعب الذي تركه، عرفني على نوع مشاعري الملساء مثل سطح البلاط الناعم.

كنت أخرج من منطقة المساكن الشعبية القريبة من السوق، ذاهبا إلى لقاء أخي الذي تأخر عن ميعاد جنازة أمه. كانت أسرتنا مجتمعة، لأول مرة. هالني العدد الوفير من أبناء العمومة والأقارب وأبناء الأخوال. لم أتخيل أننا متشابكون مع العالم بهذا الشكل. واندهشت من الشعور الغريب بالوحدة، رغم أن للمرء كل هذا العدد من الأقارب.

الشقة واسعة، أوسع من حجمها الطبيعي ونظيفة، البلاط لامع بعد رفع السجاد، والشمس تدخل من النوافذ المفتوحة، وصوت القرآن يتردد خافتا من كل الأركان، كأنهم يشغلون راديو صغير في كل غرفة. أثار قلقي هذا العديد الوفير من الأقارب، وشعرت بضرورة أن يكون أخي موجودا.

كلما تقدمت في السير حط المساء بسرعة وعندما وصلت جسر السكة الحديد، كان الظلام كثيفا، وشممت رائحة الفجر في النسمات الباردة، وأدركت أن الكهرباء مقطوعة عن المدينة. كنت أعرف أننا لن نستطيع أن ندفن الجثة حتى يأتي " حسام "، فأمي كانت ترفض الدفن قبل أن تراه. كلما دخلت غرفتها المظلمة ورأيتها ملفوفة في قماش ابيض، ووجهها الضخم صامت صمت الميتين، يراودني أمل أنها ربما تكون قد ماتت تماما. لكن في كل مرة اقترب منها، تفتح عينيها وتقول

بطريقتها القاطعة أنها لن تتحرك من غرفتها قبل أن تراه، ثم تغمض عينيها وتعود إلى موتها الجزئي.

كنت في طريقي إلى لقائه في موقف سيارات الأقاليم في الطرف الشرقي من المدينة. أمشي في شوارع خالية مظلمة، خائفا من كل ما حولي، وبشكل أساسي كنت خائفا من أن يرفض الرجوع معي، وبالتالي ترفض أمي أن تموت. كنت أدرك عجزي عن حل هذا التناقض، ووجود الأقارب هو الآخر كان نوعا من الضغط. فقد أدركت أنهم لن يساعدوني وإنما سيتفرجون علي، ويقيمون طريقتي في حل المشكلة كأنهم لجنة امتحان. بمرور الوقت أصبحت ناقما على أمي لأنها ربطت مصيري بمهمة أشك كثيرا في قدرتي علىّ إنجازها.

لم يكن في الشوارع ما يدل على الحياة. عبرت جسر السكة الحديد من فتحة في السور صنعها الناس للمرور، محاولا الإصغاء، متابعا أقل الأصوات خفوتا دون جدوى، فقد كان الصمت مثل الشمع. الجهة الأخرى من المدينة غارقة في ظلام أكثر كثافة. فكرت أن أستقل سيارة أجرة، لكن لا وجود لأثر حركة في الشارع. عبرت بوجل أكشاك مغلقة متراصة بجوار الجسر. عندما وصلت إلى الشارع الرئيسي تأكدت من أن الصمت الخالي من كل الأصوات لا يمكن أن يكون صمت الأماكن المفتوحة وإنما هو صمت السراديب والأنفاق، وزاد هذا من خوفي، فالظلام والصمت أمران لا يمكن تحملهما معا.

في تلك اللحظة سمعت وقع أقدام وبقدر انتظار سماع صوت يدل على الحياة، بقدر الخوف الذي أصابني. الصمت يجسم الصوت ويوحي

بالمسافة. تصورت أن الصوت ما زال بعيدا. توقف ت لحظ ات، ث م عبرت الشارع الواسع الذي تتوسطه جزيرة كبيرة، مهجورة وعش بها ناشف، وبها مقاعد حجرية، حتى يكون في استطاعتي أن أستقل سيارة أجرة في نفس الاتجاه، أو ربما يأتي أتوبيس قد تأخر وفي طريقه إل ى الجراح العام، الذي يحتل مكانا واسعا في نهاية الشارع.

أصوات الأقدام تتقدم خشنة، تدهس حبات رمل. حاول ت أن أبع د الخوف بالتفكير في الشارع أثناء النه ار عند ما يغ ص بس يارات الميكروباص وبطلبة مدرسة التجارة وباختن اق الحرك ة أم ام إدارة المرور. توقفت لأن الخوف لم يترك لي مجالا للتنفس. شعوري بأنني مريض يتزايد. فكرت أن مشاعر المرض استبدت بي ولم تفارقني منذ اليوم الذي حدثتني فيه " ماجدة " إن صوت الشيطان يسكن صوتي. ل م يكن للفكرة أي أساس من المنطق، ومع ذلك صد قتها وظللا ت وقتا طويلا أفحص صورتي الخاصة للشيطان.

صوت الخطوات يقترب رغم الظلام المخيم على بيوت تبدو خالية من البشر فإن ضوء السماء، سمح لي بالرؤية مسافة عدة أمتار، ومع تقدم الصوت لم يكن هناك ما يوحي بظ لال جسد بشري. اقترب الصوت أكثر، ثقيلا، كأنه لجسد ضخم يتحرك بخطوات منتظمة. بعد لحظات، لمحت " البيادة " تسير، وحدها دون قدم أو ساق أو جسد. بخطوات عسكرية منتظمة، بنفس الإصرار، كأن الشخص الذي يلبسها يرتدي طاقية الإخفاء. لم تتوقف، كأني غير موجود. ل م تتبدل آلية خطواتها المنتظمة، كأنها في طابور عرض.

بعد قليل عندما خفت حدة المخاوف، فهمت أنها قد تكون علامة؛ مرشدًا إلى مكان أخي، وكان يجب عليّ أن أتخلص من نظرة العداء التي ورثتها من أمي تجاهها. شعرت بضرورة أن أتبعها. في الحقيقة لم يكن لي خيار. بعد قليل ابتعد صوت البيادة، وكان على أن أسرع ورائها. اقتربت من جراج شركة النقل العام. سمعت صوت الموتورات عاليا، ولاحت في الهواء البارد رائحة الجاز. كانت البوابة الحديد الكبيرة مفتوحة، وأشباح العمال تتحرك في الظلام بين الأتوبيسات. حركة الرجال الخافتة نصف النعسانة علامة من علامات الفجر. تمهلت خطواتي محاولا إدراك حركة الزمن في حركة العمال، متمثلا صوت الأتوبيسات ورائحة الجاز، وما أثارته في من ونس اعتبرته العلامة الأكيدة على أنني لا أسير في مدينة خيالية.

عندما عبرت الجراج كان صوت البيادة قد تلاشى. بعد مسافة قصيرة من السير، رأيت جمعا من الناس. يلبسون ملابس غريبة، تمتّ إلى عصور المماليك، يقفون أمام " السبيل " الذي تم نقله من ساحة الجامع الكبير إلى هذا الموقع في مدخل المدينة الشرقي؛ كانوا يتحدثون لغة غريبة، وعرفت أنهم ينتظرون أذان الفجر. ران الصمت عليهم عندما اقتربت. واستعدت خوفي وحسي بأنني فقدت طريقي. سرت على الرصيف بعيدا. سمعت تعليقات أقلقتني قليلا رغم كونها خافتة كأنما المقصود ألا أسمعها.

قال أحدهم:

" أليس هذا هو موظف دار الكتب الذي تسكنه الشياطين ".

" إنها إشاعات. ألا ترى أنه يمشي في الليل؟ "

قال صوت واهن:

" الناس كثيرا ما تمشي في الليل ".

" إنه يمشي في أنصاف الليالي دون خوف "

" لا يعني ذلك أي شيء "

" أتظن أن شخصا تسكنه الشياطين يمشي هكذا وحده في الليل؟ إنني لا أصدق ذلك "

" لكن البلد كلها تصدق "

قال صوت بعيد كان يتآكل كلما ابتعدت:

" لا يا أخي، حياة الناس فارغة. لو عندهم ما يشغلهم، لما أطلقوا علي الهمس الذي يصدر رغما عن المرء، شياطينا "

سرت في منطقة أشجار ظلامها كثيف، خائفا أن أتوه ويتوقف كل شيء مرة أخرى. فالزمن يفقد حركته في المناطق الشديدة الإظلام. في النهاية لمحت ضوءا خافتا. عرفت أنني أخيرا وصلت إلى الموقف. سيارات الفورد القديمة واقفة في صفوف بجوار مدرسة النسيج، حيث تميل أشجار الكافور بفروعها الكثيفة فتدمج في الظلام السيارات البعيدة في نهاية الصفوف.

على باب الموقف في كشك خشبي، جلس رجل يحسب كوبونات صغيرة؛ صوته مرتفع ينطق الأرقام ببطء كأنه يتعلم الحساب. شعلة

ضوء خافتة ظهرت الآن، سرت تجاهها حتى وصلت إلى باب غ رزة مصنوع من قطع من خشب البناء غير متساوية. رأيت حس ام جالس ا على مقعد من الخوص بلا مسند. رائحة الدخان مخمرة يعبأ بها المكان وشعلة الضوء عبارة عن لمبة بطارية صغيرة. عرفت أخي من انحناءة ظهره. على منضدة قصيرة من الصاج رأيت البيادة تطل برأسها م ن كيس من البلاستيك الأسود، هادئة؛ فردة مطوية الرقب ة والأخ رى لا يظهر منها غير رباطها. لا أحد في المقهى تحرك من مكانه. أو ع دل جلسته عندما دخلت. ثلاثة سائقين يجلسون إلى منضدة مجاورة للباب، استمروا يتحدثون، يحسبون فلوسا مكومة أمامهم. بجوار أخي، جل س سائق بجلباب فلاحي، يدخن وهو ينظر بانتباه إلى وجه " حسام " الذي كان يتحدث بحماس.

عندما وقفت وراءه مباشرة، لم ينظر إليّ. ك ان يواصل حديثه ويشير إلى البيادة قائلا:

" أنت تراها أمامك، لا تؤذي أحدا. إنها راقدة في الكيس كقطعة ميتة. قطعة من الجلد غير مفيدة. إطلاقا، صدقني، إطلاقا. "

توقف عن الكلام وأخذ رشفة من كوب الشاي، وظننت أنه سوف يستدير. ظننت أنه أحس بوجودي. لكن ذلك لم يحدث وسمعته يستأنف الحديث:

" هم الذين أوحوا إليّ بالفكرة "

نظر في وجه السائق:

" بعدما جئت من الحرب كانت أصابعي تـ رتعش. أذ ا لا أحـ ب الميتين، جعلوني في الجيش ألم عظام واحد ميت، وأضعها في كـ يس، من يومها وأصابعي ترتعش، ربنا خلقني على هذا الشكل، ماذا أفعـ ل؟ أخاف من الميتين مثل العمى. من يومها أصابعي ترتعش، ولا أستطيع التحكم فيها، إذا أمسكت كوب شاي لفترة طويلة من الممكن أن ينسكب، أنت تلاحظ أنني لم أمسك كوب الشاي، البيادة ساعدتني على التحكم في حركة أصابعي، أنت تراها، مجرد بيادة ميري ".

" طول عمري أحب أن أعاند نفسي. خطر لي أن البيادة ربما تشفي ارتعاش أصابعي، علقتها على الحائط، ورأيت وجوههم تغـ يم، كـ أني أعلق جثة في البيت، لا أعرف ما الذي يخيفهم منها، وها هي كما ترى أليفة كقطة ميتة، وقد شفيت تقريبًا من تلك الرعشة وأصبحت البيـ ادة رفيقتي ".

شعرت بنفسي محاطا بضباب يحجبني عمّا حولي. عرفت فجأة أنه لا أحد يسمعني. مددت يدي ولمست كتف حسام، لكنـ ه لـ م يلتفـ ت. اضطررت أن أهزه هزات خفيفة. لم يحدث أي تغير، كـ أني هـ واء، وواصل حديثه. رفعت صوتي قائلا: أمك ماتت وعليـ ك أن تحضـ ر الجنازة. لكنه لم يلتفت. تأكدت أنني غير مرئي. رحت أتحـ رك فـ ي المكان وأهز المناضد وأقترب من أخي وأهمس في أذنه بلا جدوى.

صحوت من النوم مرعوبا، وبقيت كذلك عدة أيام. في ظني كـ ان الحلم يخص ما لم أحكه لماجدة. يجسد خيانتي للقصة، التي أرويها عن أخي، كانت الحكاية تبني نفسها لتحقق أهدافا غير تلك التي تظهر مـ ن

أحداثها الظاهرة، تستخدم تفاصيل حقيقية لتقيم نوعا من التأثير السري على " ماجدة "، نوعا من التنويم المغناطيسي أو التعازيم كي تقترب بمشاعرها مني. الغريب أن عيونها التي كانت تلمع بالانتباه ساعدتني على الحكي، أو ساعدت الحكاية على أن تأخذ هذا الشكل الخائن.

على الجانب الآخر كانت الحكاية الأصلية تتسلل إلى شرود ما قبل النوم، وأثناء عملي في الصيدلية بعد الظهر، ظهر لي الألم الذي لم أتبينه في وقته، ذلك الألم الغريب الذي عانيته بعدما تركت أمي وحدها في الشقة مهزومة من سرقة كفنها، ونزلت لكي أوقع بالانصراف. تحت الأفكار المشوشة عن الطريقة التي سوف أتصرف بها مع " حسام " كان ألمي يصحو لأنني لم أتعاطف مع أمي لم أشعر بالرعب الذي هدها وأدى بها إلى الموت.

في ذلك اليوم عدت إلى دار الكتب من نفس الشوارع التي مررت بها في الصباح، مفكرا في اللغز الذي تركه أخي، غير منتبه إلى " عماي "، ولا إلى أحزان أمي. أثناء حكاية القصة كنت أندهش من أنني لم أشعر – في ذلك اليوم– بثقل الخوف الذي عاشته. كيف لم أفكر في المخاوف التي شعرت بها وهو يعبر الباب ويفتح الدولاب ويأخذ الفلوس؟ وهي بعيون نصف مفتوحة، ترقب طيفه يتسلل إلى غرفتها المظلمة؛ غرفة الأب التي كنا ندخلها بوجل. كيف داس على كل تلك الأمور؟ وكيف كانت ترقبه كأنها ترى كابوسا؟ لم تستطع أن تتحرك لأنها كانت تخاف أن يكون مخمورا. لم تحب أن تراه منهارا مخمورا

كأنها لا تريد أن تصدق أن يكون ابنها على هذا النحو. كيف لم يؤثر في كل ذلك وقتها؟

استمر تبرمي وضيقي في تلك الأيام، وعندما اتصلت بنورا بعد عودتي من عملي المسائي، لأعرف ما إذا كانت أمي قد انتقلت إلى شقتها، ولتعطيني معلومات أوفر عن مكان حسام، كان الغضب مازال يسيطر عليّ، وعندما سمعتها تبكي وتقول إنها خائفة عليه وتخشى أن يحدث له مكروه، انفلتت سيطرتي على نفسي. قالت زوجتي إنني كنت أصرخ كالمجنون وأنا أنظر إلى سماعة التليفون، كررت كثيرًا عبارة أنه ليس امرأة حتى تتوحي عليه، ولمتها على نسيانها لخروف أمها وسرقة كفنها. بعد ذلك بعدة أيام أدركت أنني لابد أن أتصرف واتصلت بنورا مرة أخرى، وسألتها إن كانت تعرف مكانه فأخبرتني بأنه يعيش في شقة أحد أصحابه بالقرب من الاستاد الرياضي.

أتذكر بوضوح الكراهية التي شعرت بها تجاه كل شيء في تلك الأيام، وبالذات تجاه أمي: لماذا تبدو هكذا مترهلة حزينة ؟ أحزانها مثل سائل هلامي لا يمكن السيطرة عليه. طوال الوقت تتحدث عن المخاوف؛ عن خوفها من أن تواجهه وهو مخمور، وعن قلقها من صمته لأنها لا تعرف ما الذي يدور في جوف الصمت، وتوجه إلى هواجسها؛ تصبها في، كأني وعاء لتلقي الأحزان والمخاوف .

أجلت يوما بعد يوم، الذهاب لرؤيته في شقة صديقه، أو الاتصال به، لم أكن أعرف ما هو المطلوب بالتحديد، هل أسأله أن يرد النقود؟ أم أحاول معرفة ما الذي دفعه ليفعل ذلك؟ أم أصحبه ليعود إلى بيته،

حتى تعود الحياة لمجراها ؟ أعرف منذ البداية أن تلك الأمـ ور غي ر ممكنة، وفي حقيقة الأمر كنت على يقين من أن كل شيء انتهـ ى، وأن لقائي به سوف يدفع التحطم الذي حدث لحياتنا إلى نهايته.

سيطر " حسام " على تفكيري في تلك الفترة، أحاول فهم ما حدث، كان كل شيء ملموسا بالغضب، وعانيت من عدم تصديق أنه اخت رق كل تلك الحواجز والمحرمات، وفعل أمرا من الصعب تصوره. كن ت أقول لنفسي وأنا في طريقي إلى عملي في الصباح: " أكيد لم يكن في ه عقل " عندما فكر في الأمر، لابد أنها لحظة غريبة شاذة لا يمك ن أن تتكرر. ولكن كل ذلك لم يبدد إحساسي بالغربة عنه، ولا اس تطعت أن أسامحه، ربما لكونه قد هدم نظم وتقاليد حياة كنا نعيش في ظلها، حتى لو فقدنا اقتناعنا بها، لكنها موجودة نسير تحت ظلها، ول ن نقب ل أن يعرفنا أحد أنها أصبحت فارغة من محتواها، رغم إداركنا بفراغها؛ لن نتسامح معه.

كلمة " الاستاد الرياضي " التي ذكرتها نورا في مكالمتها الأخي رة، ذكرتني بغرامه بكرة القدم في صباه. في المدرسة الثانوية أهمل دروسه وأراد أن ينضم إلى فريق الناشئين بالنادي الرياضي، لكن أبي لم يك ن يفهم ذلك. تذكرت تلك الأجواء المشحونة بالتوتر، وأول صدام معل ن بين أبي وأمي. قال أبي إنه لو فعلها وانضم إلى فريق الك رة بالن ادي فسوف يكسر رجله، وكاد في يوم من الأيام أن يوفي بوعده ويعلقه في السقف، لأن " حسام " ذهب فعلا وتدرب مع فري ق الك رة بالن ادي. تدخلت أمي وقالت بحسم إن لمسه فلن تبقى في البيت لحظ ة واح دة.

كان وجهها المترهل في ذلك الوقت ما زال أحمر وبه تلك القوة الصامتة. انقسم البيت منذ ذلك الوقت قسمين، أنا وأبي في كفة، وحسام ونورا وأمي في الكفة الأخرى. انتهت الأزمة لكن القسمة ظلت تفعل فعلها في الداخل، مشاعر تحتية لا يتم نقلها إلى اللغة حتى لا يتأكد وجودها.

في النهاية كان لابد من لقائه. اصطحبني أحد أصدقائه إلى شقة واسعة في العمارات الجديدة بجوار الاستاد الرياضي. كانت الشقة مضيئة أكثر من المعتاد بسبب الشرفة المفتوحة التي تطل على أرض الملعب. شمس العصر تبدو شاحبة على النجيل الذي كان منحولا في المستطيل الواسع أمام المرمى، وتلمع على المدرجات الأسمنتية الخالية. كان حسام يلبس "شورطا" رياضيا وفانلة بحمالات ويقف في الشرفة. تبادل مع صديقه عدة كلمات قبل أن يأتي إلى الصالة ويجلس في مواجهتي، تفصلنا منضدة خشبية واطئة.

لم تحررني أحزانه وصمته أمام الملعب الخالي من مشاعري تجاهه، بل شعرت بأن وجوده قد وضح غربته عني وجعلها نقية، ولم أعد راغبا في أن أخفيها. عندما جلس أمامي، فرد جسده، وعلق يده على حافة المقعد، وخطر في بالي أنه يعاملني بنفس التحدي الذي كان يعامل به أبي. تأكدت الآن من أنه ينظر إلى على أنني الصورة الباهتة من الرجل الذي مات. كانت تلك الفكرة كافية لإطفاء ما تبقى من حس الأخوة الخامد. تحدث وهو ينظر إلى النافذة عن اضطراره لأخذ الفلوس من أجل مشروعه، فهي كانت سترفض إذا طلبها منها، وسوف

يردها بعد أن تتحسن أحواله. كان صوته خافتا حتى أنني لم أتبين بعض الكلمات، وفي الصمت الذي أعقب حديثه لم أجد ما أقول، لكن غيظي من الطريقة الباردة الخالية من أي حس بالذنب، وترني، وعندما سمعته بعد ذلك يقول بهدوء: " عارف أنها بعتتك عشان الفلوس "، صعد غضبي وتحول إلى أزير في جسدي.

لفظ " بعتّك " هو الذي يحمل لي الألم واليقين بأن كل ما بيننا لا وجود له، فقد كانت تعني أنني هذا الشخص الذي يطيع الأوامر وتعليمات البيت، وتذكرت على نحو خاطف ذكرى بعيدة لم أعرف أنها تحافظ على حياتها خفية عن الإدراك كل تلك الفترة. كنت لا أحب أن أنزل لأشتري التموين. كرهت أول يوم في الشهر بسبب ذلك المشوار الثقيل إلى البقال. يصدر أبي أوامره ويدخل لينام بعد عودته من العمل، أظل أتلكأ والوقت يمضي بسرعة ويضغط علي اقتراب ميعاد يقظته. في النهاية أحمل بطاقة التموين وأذهب إلى البقال العجوز في حارتنا القديمة. ذات يوم قابلني " حسام " على السلم. كنا في المساء وكان راجعا إلى البيت، تفوح منه رائحة العرق، ومغمور بذلك التوهج الذي يبقى في الوجه بعد لعب الكرة. تمهل قليلا وبدا على وشك أن يسألني إن كان أبي قد استيقظ من النوم، عندما لاحظ بطاقة التموين وحقيبة القماش البيضاء كانت جزءا من " بياضة مخدة "، يومها قال: " بعتك تجيب التموين " كانت نبرته بها سخرية وفرح، لأنه أفلت من ذلك.

أعادت الكلمة تلك الحادثة البعيدة المؤلمة التي بقيت في الذاكرة، مطمورة، تحمل قهرا لا يمكن ترويضه، كانت كلمته لها نفس النبرة

القديمة، وهيجت أحزاني التي ارتبطت برائحة العرق والتراب الذي يلتصق بالشعر والجري في الساحات ولعب الكرة وتركتني غير قادر على أن أسامحه بسبب هذا اللعب الذي كان يعيش فيه قبل أن يقابلني على باب البيت.

هل يمكن أن يفهم الإنسان ما الذي يدفعه إلى أن يسلك بعكس الطريقة التي دبر أن يسلك بها ؟ كان رد فعلي غريبا. وكلما تذكرته لا أفلت من حس خافت بالخجل. دفعت المنضدة تجاه ساقيه بقدمي وقمت واقفا وأنا أقول:

" أنت طول عمرك تافه وأناني ولا ترى غير نفسك "

" عيل مش هتكبر أبدا "

" على العموم أنا غلطان أني مبلغتش البوليس "

كان ينظر إليّ مذهولا، ينكمش في مقعده بسبب الألم الذي سببه ارتطام المنضدة بركبته. عيناه تتفحصان ملامحي، ربما يبحث عن علامة واحدة من علامات الأخوة. وجهه يغيم وينطفئ، وأنا لا أكف عن الكلام الذي لم أعد أسمعه ولا أستطيع تذكره، لكني أعرف رغبتي جيدا؛ كنت أعرف أنه لو تكلم أو نطق فإنني سأقتله.

ظل هذا مكمن ألمي فترة طويلة، فقد أدركت بعد ذلك أنه لم يكن خاطرا في لحظة خارج الشعور لكنه كان رغبة حقيقية حتى أنني تمنيت أن يتحرك أو ينطق حتى تنفجر تلك الرغبة وتكتمل، لكنه لم

يفعل. ظل ينظر إلى بهدوء كأنه لا يسـ معني. الفكـ رة التـ ي لمعـ ت كالنصل، انطفأت بأثر صمته وذهوله.

عندما استدرت لأغادر الشقة، لمحت البيادة معلقة على الحائط، ولم أتمالك نفسي، اندفعت إليها وطوحت بها من الشـ رفة المفتوحـ ة. لـ م يتحرك أيضا، وقفت لحظة واحده أنتظر حركته، لكن كل شـ يء ظـ ل على حاله كأنه لن يتحرك أبدا.

فتحت الباب ونزلت.

بدورم دار الكتب

في مدينتنا الصغيرة يسمون المكتبة العامة " دار الكتب "، وهو مبني مكون من ثلاثة طوابق تم تحديثه في الأعوام الأخيرة ليصبح مكانا مناسبا لاسم المكتبة الحديثة. كنت أميل إلى الشكل القديم للمبنى، فقد كان مناسبا لمكتبة عامة في مدينة صغيرة، وإنسانيا بدرجة ما، بأرضياته الخشبية وأسقفه العالية ونوافذه الزجاجية. لم تكن حاجته إلى الصيانة ومكافحة حشرات الكتب والفئران والرطوبة تتطلب هذا التغيير في تصميم قاعاته، التي أصبحت ضيقة بأسقف واطئة، وغصت بدواليب الكتب التي نصبت بشكل هندسي، بدد اتساع القاعات، وحجب روحه خلف التجهيزات الحديثة.

السبب الرئيسي لنفوري من تحديث المبنى هو تخصيص غرفة مستقلة للفهرسة والتصنيف. من حظي السيئ أنها كانت البدروم. لم تجد المحاولات المتراخية التي قمت بها مع زميلاتي لإثناء الأستاذ " توحيد "، مدير الدار، عن الأمر، والسماح لنا بمزاولة عملنا في قاعة القراءة كالعادة. قال إن تصميم المبنى، له صورة محفوظة، في الوزارة، في القاهرة، ولا يستطيع تغييره على هواه.

استسلمنا لأقدارنا وعملنا في البدروم، ننهي أعمالنا بسرعة ونتفرق في قاعات المكتبة. من اليوم الأول كنت أهرب من رائحة الجدران، التي لم تمحها الدهانات وعوازل الرطوبة والمركبات الكيميائية، التي كان الأستاذ " توحيد " يتباهى بها، ويقول إنها مستوردة. في تباهيه، دهشة مستترة، من أن دار كتبنا الصغيرة حظيت أخيرا باهتمام المسئولين في العاصمة، حتى إنهم قاموا باستيراد عوازل الرطوبة

(خصيصًا) للمكتبة. كان هذا دليلا على أننا قد أصبحنا مرئيين م ن قبل السلطة، وأن علينا أن نعمل بجدية كما يقول. لم ترفع تلك العوازل عن البدروم سمته القديمة ولم تمنع الجدران من بث رائحتها، وبمرور الوقت بدا أنها تأكل العوازل وتسكبها رائحة غ دت مميـ زة للبـ دروم تواجهنا عندما نفتحه في الصباح، خاصة عندما اختلطت برائحة الكتب والصمغ الذي نلزق به الكعوب التي تحمل أرقام التصنيف.

واكب انتقالنا للعمل في البدروم عملي في الصيدلية. كان الصـ راع بيني وبين " سهام " حول العمل الإضافي قد تم حسمه لصـ الحها بعـ د إنجاب طفلنا الأول. استلمت عملي في صيدلية في شارع البحر يديرها أحد معارفي من أيام العمل في العراق. الأيام الأولـ ى كانـ ت تغـ ص بالتوتر. فالعمل الجديد يساهم في تفتيت عادات قديمة وبنـ اء عـ ادات جديدة. دائما ما يلقي التغيير مقاومة. شيء ما في الذات يحرن خاصـ ة بالنسبة لشخص قضى سنوات يعاني من انقلاب حياته بعد أن كان على وشك مغادرة هذا المكان والسفر إلى العالم الواسع في أوربا. وجد نفسه متورطا هنا بصورة نهائية. التوتر الذي سببته لي رائحة البدروم. يعود لارتباطها. بشكل ما. برائحة الصيدلية. من الصعب علـ ى المـ رء أن يقضي أغلب ساعات النهار في مكانين يتميزان برائحة هي تنويعـ ات لرائحة الأدوية. حتى جاءت " ماجدة ".

في يوم أحد من شهر سبتمبر دخل الأستاذ " توحيد " البدروم الـ ذي يصر على تسميته " قاعة الإعداد الفني ". كان مبتهجا ويزك بوضـ وح على ساقه اليسرى شارة البطولة التي بقيت من مشاركته فـ ي حـ رب

تحرير سيناء. يرتدي قميصا أبيض وبلوفر سماوي مفتوح الصدر لـ ه زراير زرقاء داكنة. بعد لحظات رأينا " ماجدة " تسير وراءه. قدمها لنا الأستاذ " توحيد " على أنها زميلة تركت العمل الجامعي وجاءت لتساهم معنا في " نهضة المكتبات الحديثة". كان يتكلم بجدية عن أمور نعـ رف كذبها. أنه تربى في مناخ آخر. يصدق ما يقول. أو يجد من الضروري أن نعيش الشعارات على أنها حقائق.

لأول وهلة أربكني وجه " ماجدة ". الملامح محببة. وفـ ي صـ متها حيوية ملفتة للنظر. ألقيت عليها نظرات مدققة. خلسة. أثنـ اء جلـ وس الأستاذ " توحيد " معنا وتقديمها لنا. عرفنا أنه لن يتركنا اليوم. سـ وف يظل يتحدث عن أمنياته في " تفعيل " نظام المكتبات الإقليمي. عيون " ماجدة " بنية اللون لامعة. أنفها مستقيم ووجهها أبيض يوحي بعبـ وس وتعال. تستر شعرها بإيشارب أخضر خفيف. لم تعط. في ذلك اليـ وم. الإيحاء بأنها محجبة. قضيت بعض الوقت أحاول التغلب على ارتباكي. وأخيرًا صعدت إلى قاعة المراجع في الدور الثالث.

أثناء رحلتي إلى عملي المسائي في الصيدلية. أدركت مصدر القلق؛ كانت " ماجدة " بها بعض الشبه بعلياء. انطباعي خلـ يط مـ ن الفـ رح باستدعاء " علياء " والخوف من عتمة وصمت الزميلة الجديـ دة. فـ ي الفترات المتناثرة بين تلبية طلبات الزبائن أو طلوع السـ لالم الخشـ بية لالتقاط علبة أقراص من الرفوف العليا. أو في اللحظات القصيرة التي تخلو فيها الصيدلية من الناس. كنت ألمح التشابه. لكنـ ي لـ م أسـ تطع تحديده.

في طريقي إلى بيتي في منتصف الليل. كانت حرارة الجو قد تلاشت وبدأ الخريف يعطي بشائره برودة في النسمات. استسلمت لاسترخاء يومي. متمثلا الحس المريح بأن يومًا آخر قد مر. أدركت أوهامي وفهمت أنني أحاول استدعاء "علياء" بكل طريقة. تلك التجربة الخاطفة التي عشتها في عامي الأخير في الجامعة. ظلت كامنة. مؤثرة. مهما تقدمت في العمر. وسافرت وتزوجت وأنجبت. يبدو أثرها واضحا في لحظات التعب. في المشاوير المتعجلة للعمل المسائي. وأوقات حساب المصاريف الأسبوعية؛ تحت كل ذلك. كان يبدو أن تلك التجربة (تجربة التلاميذ!!) لم تمت. لها من الواقع والحسية ما يوحي بأنها ستعيش إلى الأبد.

عرفت أنها أوهامي. فقد كنت أحاول استدعاء "علياء" بكل طريقة. تذكرت أحلامي بها بعد عودتي من العراق. وتلك الأيام التي تجولت طويلا في الشوارع بحثا عنها. رغم إدراكي لوهمي. ومعرفتي بأن "ماجدة" لا تشبه "علياء" في شيء. فإن الجانب الآخر الراغب في إيجاد صورتها. كان يغويني بالتحقق من عدم التشابه.

في الأيام التالية عرفت اختلافهما. فقد كانت "علياء" تميل إلى السمرة وجسدها أطول قليلا وبسمتها بها طابع عابث يؤكده فلجة في أسنانها الأمامية. في كل يوم يتأكد انطباعي بسبب ما يضفيه صمت وعبوس "ماجدة" على الجو. كان ذلك مخالفا لتلك الخفة والحيوية التي تميزت بهما "علياء". رغم وضوح هذه الفروق فإنني لم أستطع أن أتخلص من إحساسي بالتشابه الذي ظل يؤكد لي نفسه بشكل سري.

تواري ذلك تدريجيًا تحت تأثير الاعتياد اليومي. رحـ ـت أتعامـ ـل باطمئنان معها. أعاملها أحيانا بخفة. وأحيانـ ـا أسـ ـخر مـ ـن تعاليهـ ـا وعبوسها. أجد لذة في مناوشتها وإثبات أن معلوماتها لا تتعدى كتـ ـب الدراسة. وأن قدرتها على التصنيف لن تتطور بمجرد فهمها لبـ ـواطن قواعد الفهرسة وجداول التصنيف وأن الثقافة العامـ ـة ضـ ـرورية لأي مفهرس. إنها جزء من " عدة الشغل ". كما إن تلك الـ ـروح القطعيـ ـة الدينية التي يتم بها التعامل مع أدوات تصنيف المعارف أنتجها الغرب لتصنيف علومه. يجب أن نستعملها بمرونة. ولا ننظر إليها نظرتنا إلى الكتب المقدسة. أحيانا كانت تلك اللهجة العدوانية تربكها. كمـ ـا حـ ـدث ذات يوم عندما حدثتني عن أنها لم ترني أصلي الظهـ ـر. رددت قـ ـائلا إنها ليست مسئولة العناية الإلهية. وإن عليها أن تكون في نفسـ ـها. ولا تتدخل في حياتي.

صمتت في ذلك اليوم محرجة. وبدت كأنها فقدت الأسـ ـلحة التـ ـي استعملتها مرارا في الهجوم على من لا ترغب في الحديث معه. فقدت فجأة هذا التعالي الذي تعاملت به معنا. كأنها تواضعت عندما جـ ـاءت لتعمل في المكتبة العامة.

لاحظت " نادية " أنني أصبحت كدرا أثير مشاكل على " الفاضـ ـي والمليان ". قالت إن عليّ أن " أخف " لأن دمي أصبح ثقيلا. وإذ ـه لا يجب أن أفرد عضلاتي على البنت لمجرد أنهـ ـا كانـ ـت معيـ ـدة فـ ـي الجامعة. كانت لـ ـ " نادية " تلك الطريقة الأخوية المازحة في التعامـ ـل

معي. وأخذ حديثها نبرة جادة. وقالت إنني لم أكن كئيبا هكذا حتى أيام موت أمي.

نبهتني " نادية " إلى عدوانيتي بهذا الحديث العابر الذي جرى ونحن واقفان أمام باب المكتبة الخارجي. بعد أن وقعنا بالحضور. كان يوم ١ من أيام يناير. ليس باردا كالمعتاد وضوؤه زاه يـ نعكس عل ى قم م العمارات العالية في الجهة المقابلة من الشارع. ويكشف الغبار الـ ذي يغطي قبة ومئذنة الجامع القريب. في هذا اليوم بالتحديد. لم أكن أرغب في الحديث معها عن القلق الذي تثيره " نورا ". بسبب غياب " حسام ". اتصلت بي بالأمس لتخبرني بأنها رأت شخصا يشبه " حس ام " ف ي شارع البورصة. كانت تشتري لعبة لطفلها. لمحته. تركت ما في يدها. وخرجت مسرعة. كانت الشوارع مزدحمة. فقد كنا في الأيام الأخي رة من رمضان. لم تعثر عليه كأنه " فص ملح وذاب ". لم أشأ أن أتحدث عن عاطفية " نورا ". ربما لم تحزن على أمها. رغم ذكرها لذلك. قدر حزنها على ترك "حسام " المدينة.

بسبب ملاحظة " نادية ". بدأت أنتبه إلى عدوانيتي تجاه " ماجدة ". لمحت ذلك التيار السري الذي كان يبحث عن أي نقطة خ لاف كـ ي ينفلت؛ تلك الرغبة في أن أدفع عن نفسي خطرا م ١. أنف ي سـ يطرة مسبقة. كنت أدرك أنني سأخضع لها دون شك. الـ دوافع الغامضـ ة لا يمكن السيطرة عليها بالمعرفة إنها تفلت غصبا. بعد ذلك بعدة أيام حدث بيننا خلاف حول أحد قواعد الفهرسة. قم ت بعصـ بية. وأحضـ رت المرجع. وأشرت إلى الفقرة. كان صوتي مرتفعا. و " ماجدة " صـ امتة

لا تنظر إلى الكتاب. بل إلى وجهي. خجلت من نفسي وتركت البدروم. بقيت طول اليوم في قاعة الدوريات. قبل التوقيع بالانصراف. رأيت " ماجدة ". تحمل حقيبتها وتسوي ملابسها. اقتربت مني في طريقها إلى الخروج. قالت بهدوء وحسم إنني لا يجب أن أصعد خلافات العمل وأحولها إلى أمور شخصية. وافقتها معتذرا. تجنبتها عدة أيام لكني أصبحت منشغلا بها أكثر مما كنت أثناء الحديث معها.

حدثتني ذات يوم عن أنها أحبت المكان. لم أعرف على أية تفصيلة من تفاصيل المكان يقع الحب. فسرت الأمر بأنها أحبت السكون والجو الهادئ الودود الذي نمارس به عملنا. عبارتها كانت تشير من ناحية أخرى إلى ميلها (أو هكذا افترضت) إلى الأماكن المنعزلة. كان ذلك مخالفا لتلك الحيوية التي تشع من عينيها. وطريقتها الذكية في الرد. والرغبة المرحة في فتح حوارات لا تنتهي حول أبسط الأشياء.

كان يغلب على طبعها حس بالتقلب. فجأة في قلب المرح. تنسحب وتتخذ ملامحها صمتا صلبا. لا تترك عيناها النقطة التي حطت عليها. خطوط الأنف تصبح أكثر استقامة. ذلك الجمال الذي يظهر أثره باهتا أثناء الحديث. يكون في حالة تجمد تزيده جمالا. لكونه خفيا عنها. ليس مستعملا للتأثر على أحد. في تلك اللحظات تبدو كائنا غامضا لا يمكن الاقتراب منه. لا يظهر أثر هذا السكون فقط أثناء الصمت والانعزال بل أيضا أثناء تركيزها في العمل. بعد عدة نقاشات حول مرونتها في تطبيق قواعد التصنيف. أرجعت ذلك الجمود الذي تطبق به القواعد إلى

الجو الديني الذي تربت فيه. وشعرت بأنها تحمي ما تعلمته وليست راغبة في التحقق من صحته.

بحكم العمل الذي يحتاج إلى مشاورات مستمرة في كيفية وضع الكتب في أماكن متاحة لمستفيدين متخيلين، تورطنا في أحاديث لا تخص العمل. تسللت أحداث حياتنا داخل النقاشات المهنية، كنا أحيانا نستسلم لرغبة غامضة أن نترك الكتب على المنضدة ونتحدث عن أنفسنا. الوقت ممتد، لا ضرورة لإنهاء تصنيف الكتب، لأن القراء يتعاملون مع الرفوف مباشرة، وأمناء المكتبة يلمون، في آخر النهار، الكتب المتروكة على المناضد ويضعونها في أقرب الأماكن.

خلال تلك الأشهر عرفت أن علاقتها بأبيها متوترة، بسبب رفضها لكل عريس، عندما سألتها عن السبب قالت وقد لمعت عيناها: " بصراحة مش عاوزة أتجوز ". بدت مندهشة من اندفاعها في الكلام. بعد صمت قصير، ربما أدركت أنها لم تقل شيئا، استعادت الحديث وعلى وجهها ابتسامة متشككة: " أنا غريبة شوية، مش كدة ؟ " أكدت بجدية أن ما تقوله هو حقيقة مشاعرها، وأنها لا تريد بعد أن تخالف نفسها. قالت بإصرار إن أحدا لن يجبرها على فعل ما لا تريد. الخلافات بينها وبين أبيها بدأت بسبب أمور لا تبوح بها، وتفجرت عندما أصرت على ترك الجامعة وتوقفت عن استكمال رسالة الماجستير، ثم أصبحت العلاقة أكثر توترا وعنفا كلما رفضت عريسا.

لم أصدق ادعاءها بأنها لا تهتم بالزواج وتعمل على ألا يتم. كنت أرى قلقها عندما تدخل إحدى زميلاتها في الكلية وتجلس معها.

الزميلات اللاتي كن يطلبن منها الم ذكرات وش روح المحاض رات؛ اللاهيات اللاتي تفرغن للحب واللعب، غدون سابقات لها، متزوج ات وأنجبت بعضهن، أما هي فتجلس ساهمة أمام الكت ب، ت وتر خاف ت يطوف بوجهها في تلك اللحظات (ليس حزنا) لكونها وض عت، دون إرادتها، في مجال مقارنة هي تعرف أن أسسه غي ر س ليمة. كان ت تضحك وتمرح معهن خاصة الدفعة الجديدة التي تسلمت العم ل ف ي قاعات القراءة والمراجع، أصرت الكثيرات أن يأتين إل ى الب دروم، عندما يعرفن أن " ماجدة " التي كانت معيدة في القسم تعمل معنا.

قالت ذات يوم وهي متوترة:

" البدروم مكان عام زي غيره "

أكد لي ذلك رغبتها في الاختفاء، وذكرن ي بح ديثها ع ن ح ب البدروم. لم أكن أعرف هل يمكن أن يحب إنسان هذا المكان. فس رت عباراتها على أنها تخص هوى بالأماكن المغلقة، أو ربما رغبة مستترة في الحماية. لم يكن لها أشقاء ذكور. ذكرت ذلك بشكل عابر. أص رت أمها على إنجاب طفلين "يطلعوا زي ما يطلعوا ". حدثتني عن أعمامها في الإسكندرية وأخوالها في القاهرة: "قسمة حق "، تقول. ف ي وق ت سابق فضلت أعمامها بسبب ميلها لأبيها، فهي تحتفظ للإسكندرية بحس تفتحها ومراهقتها، وهو الأمر الذي بدأ يسبب لها قلقا، لأنها لا تتخي ل أن تلك الأيام الممتعة المفتوحة في شوارع سيدي بشر، وفوق س طوح بيت جدها قد ذهبت بلا رجعة. لا تصدق أن العالم المفتوح قد انغل ق

فجأة بسبب خلاف على ميراث. تجد راحتها الآن في بيت عمتها في القاهرة حيث تقضي غالبا يومي الخميس والجمعة.

حدثتها عن إمكانية أن تعمل في القاهرة في دار الكتب الأصلية وتعيش هناك. قالت ضاحكة إنها لا تحب أن تترك أباها: " القط يحب خناقه ". في أحد المرات تطرق الحديث عن أختها، عن علاقتهما التي وصفتها بأنها " كويسة ". لم أفهم المعنى المحدد للفظ، هل يعني أنها عادية ؟ أم يعني أنها جيدة ؟ عندما تحدثت بالتفصيل عن حياتها عرفت أنها كانت تعني المعنى الأول، فقد بدت أحيانا ناقمة على أختها التي أثنتها عن دخول كلية العلوم، فمن صغرها تحب العلوم والرياضيات. قالت بتسليم: " كل شيء راح لحاله، كنت صغيرة مش عارفة نفسي ". على ما يبدو كان لأختها تأثير عليها. " كله محصل بعضه " كما قالت. دخلت قسم المكتبات من باب أنه قسم جديد وتفوقت لا لأنها تحب التفوق بل بحكم عادات قديمة في المذاكرة.

ظل السبب الذي دعاها لترك الجامعة غامضا. قلت ذات يوم إنها فقدت مساحة من الأمان. ردت: " كده أحسن ". حدثتني عن حب أبيها للمظاهر. كان يريدها أستاذة في الجامعة. بعد سنوات من العمل في الكلية، كرهت الجو. بدأت تفيق من نومها وشعرت بأنها لا تريد أن تستمر، لا تحبه، لا تحب دراسة المكتبات ولا تدريسها. أدركت في لحظة " صفاء " أنها ترغب في مكان هادئ وعمل روتيني. حدثتني عن الطابع " النفعي الخالص " والجو المليء بالضغائن الذي يعيش فيها الأساتذة، لن يكون بمقدورها أن تتحمل ذلك، كانت ستصاب بانهيار

عصبي لو استمرت. تحدثت بشكل غامض عن " الاستغلال "، وع ن أنها فقدت في هذا المناخ صديقتها الحميمة، منذ أن كانت في مدرس ة الأزهار الابتدائية وحتى تخرجت من الجامعة؛ كي ف تزوج ت دون علمها، وبخفاء – كأنها تدبر سرا – من معي د ف ي قس م المكتب ات وسافرت معه إلى الكويت.

خلال جلسات النميمة في قاعات المكتبة، عرفت شيئا مما حاول ت إخفاءه، وتبين لي ما كانت تعنيه بلفظ " الاستغلال ". عرفت، دون يقين ولا رغبة في الحديث معها، أنها ارتبطت أثناء وجودها ف ي الجامع ة بمعيد في القسم. سمعت عن حبها له، ومساعدته في بحوثه، بحجة أنهما " كانوا شبه مخطوبين " هذا هو التعبير الذي استعملوه في ذلك الحوار الهامس في قاعات المكتبة. كانوا يشيرون به إلى نوع م ن العلاق ات التي تتم بين الخطوبة والصداقة؛ علاقات تعرفها الأسر، لكنها لم تصبح بعد " رسمية " كما يقولون.

كان حسها الديني فضاء عائليا، تراءى لي أنه ذ وع م ن التمي ز الاجتماعي. ليس للأمر علاقة بالتعاليم الدينية. مع إن هذا الحس ك ان يتطلب الحفاظ على بعض المظاهر، مثل ترديد الآي ات واصط طياد المناسبات لإعلان أحاديث نبوية نادرة. بالنسبة لها – كما عرفت ف ي لحظات استثنائية – كان الأمر يخص إعجابا بعمها الصغير؛ الطبيب الذي ترك الطب وبرع في تجارة المع دات الطبي ة، يخ ص حس ه الصافي، وطريقته الجذابة في الحديث والحياة. كان بارعا في الأعمال براعة لا تبارى، كما ذكرت. رغم أن أباها هو الكبير إلا إنه، بس بب

إدارة خاطئة لتجارة السيارات، اضطر أن يصفي أعماله ويشارك أخاه الصغير. لم تقل " ماجدة " صراحة ما هي طبيعة السفه التي ميزت طريقة أبيها في إدارة الحياة. لمحت، مرة واحدة، إلى حبه للنساء. قالت إنه في الفترة الأخيرة أطلق لحيته. لم تعد تصدق أي شيء يصدر عنه.

رغم أن عمها كان أحد أقطاب الحركة الإسلامية في الجامعة في بداية الثمانينات، إلا إنه كان بارعا بما فيه الكفاية حتى يفلت من كل مرات الاعتقال، وينجو بنفسه بعيدا. أحيانا تتسلل نبرة ساخرة إلى أحاديثها عن ارتباط عائلتها بالدين. لا تنتقد هذا الحس صراحة، لكنه ما تورد روايات متناقضة عن تلك العلاقة غير المفهومة بين أبيها وعمها، وعن طريقتهما غير الدينية في إدارة الأعمال. لم تستطع أن تفهم خضوع أبيها، غير أنها قالت، في أحد المرات، إن عمها أوقف قليلا " هوائيته " وروض سفهه وجموحه.

هذه الأحاديث تركت انطباعا بأن الحس الديني مجرد قشرة، تقلد عائلي، غير إن ذلك لا يستقر طويلا، في لحظات أخرى تبدو متزمتة وحدود تدينها حادة ومدببة، وتظهر رغبتها في العنف. بدون قصد أخرجت نفسي من دائرة تأثيرها الديني بسبب النفور الذي واجهت به محاولاتها وإظهار ضعف فهمها، أحيانا، لبعض الآيات واستخدام الضعيف من الحديث. في ذلك الوقت كنت أعاني من موت أمي، وشكل اختفاء حسام، ضغطا غير مرئي على حياتي.

عرفت بمرور الوقت أن تزمتها وتسامحها يخضع لحالتها النفسية، لا يخص منظومة من المفاهيم أو السلوك. من الصعب أن أقول إنني

استطعت فهمها، فعلت مثلما يفعل الناس عندما يرسمون ف ي أذه انهم خريطة غائمة لمن يعيشون بينهم تساعدهم فقط ف ي الس لوك بش كل طبيعي تجاه الآخر. اعتقاد قديم لا أعرف مصادره، أن الأشخاص الذين لا أستطيع تكوين فهم واضح لهم، ذكاؤهم يتخطى ذكائي. ربما ش كل ذلك جزءا من جاذبية " ماجدة "، ومن حيرتي أمام عدم ق درتي عل ى تكوين فهم متسق لها. خاصة عندما تقبلت وتسامحت مع م ا أس مته " تهاوني الديني " وتشددت في حالات أخرى. من الغريب أنها فهمت هذا " التهاون " بنفس المعنى الذي فهمته به، رأته كنوع من عناد صبياني، وحس بديهي يرى المرء نفسه فيه مذنبا، سوء حظه هو عقاب ل ذنوب لا يعرفها. كان يبدو أنها تصدقني أكثر مما أصدق نفسي، عندما أق ول بطريقة عابثة إن لحظة " الهداية " لم تأت بعد.

منذ أن جاءت ماجدة، والأستاذ توحيد دائم التواجد بيننا. ب دأت " نادية " و "حنان " تتهامسان على مسمع مني، حول اله وى المف اجئ بالبدروم؛ ربما كان يلاحظ ذلك، فينقطع عدة أيام مم ا يزي د اله م س ويحوله إلى مزاح تشارك فيه "ماجدة " نفسها. أشاكس هم ق ائلا إنه ا طبيعته، وأضرب أمثلة على تواجده الدائم في قاعات المكتبة، حتى إن المكتب الزجاجي المخصص له، في قاعة الدوريات، أصبح مهج ورا تقريبا. الرجل " شعلة نشاط ". رغم الحس الس اخر المت واطئ م ع حديثهن، غير إن الأستاذ " توحيد " كانت له تلك السمة التي اكتسبها من سنوات الجيش الطويلة من ٦٧ إلى ٧٤. كان راغبا فعلا، كما يق ول، في إنجاز شيء أصيل قبل تركه للخدمة، يريد " غرس المكتب ات ف ي

صلب الحياة "، لكنه كان يحمل أفكارا، ولا يهتم بفهم ما يحدث، لـ ذلك يصبح أحيانا محل سخرية، وتبدو أفكاره مجرد تعاليم شكلية لا يمكـ ن تطبيقها.

معرفته العائلية بماجدة، أتاحت له أحيانا، أن يتحدث معها، في أمور خارج إطار العمل. سمعناه يتحدث عن رغبته في شـ راء شـ قة فـ ي الإسكندرية، أو يتبادلان الأخبار عن معارفهما المشـ تركين، أو تغيير سيارته، لعلمه أن أباها، رغم أنه ترك تجارة السيارات إلا إنـ ه كـ ان يمارسها كوسيط لأقاربه بحكم خبرته الطويلة. أثناء ذلك يسود صـ مت متوتر لا يلاحظه، كعادته، عندما يكون مستغرقا في أسئلته التفصـ يلية الملحة حول ما يريد معرفته. في الغالب تعاملت " ماجدة " مـ ع تلـ ك الأحاديث بطريقة مازحة، حتى جاء ذلك اليوم الذي تعرفنا فيـ ه علـ ى العنف الكامن في طبيعتها.

كان الأستاذ توحيد قد بدأ حوارا حول لقائه بأبيها أثناء العزاء فـ ي شخصية مهمة في المدينة. لهجته بها رغبة في إظهار معرفتـ ه بتلـ ك الشخصية البارزة، ومن ناحية أخرى، حاول أن يعطي انطباعا بمعرفته الوثيقة بوالدها الذي وصفه بأنه شخصية مميزة جدا. كانت ماجدة تنظر إليه وتحني رأسها، تعدل الإيشارب، وتدخل شعيرات وهمية لـ م تكـ ن تظهر، وتبتسم أحيانا بسمة عصبية خالية من الابتسام؛ بسمة بها أطياف توتر وقلق، وربما رفض، يتحول عند بعض النـ اس إلـ ى ابتسـ امات عصبية. سألته إن كان يعرف الشخصية البارزة. تمتم الأستاذ توحيـ د ببعض عبارات حول زيارته في مكتبه، ذات مرة، أيام وجـ وده فـ ي

الخدمة، وعدد صلاته الشخصية ببعض أقارب الرجل. ختم الكلام قائلا إن العزاء واجب.

تحدثت " ماجدة " بهدوء وهي تنظر مباشرة في وجه الأستاذ " توحيد " عن ذلك القاضي المشهور، " المستشار " نطقت الكلمة بطريقة تؤكد ظاهرها وتسخر من محتواها. قالت إن الرجل كان داهية، " ذكي جدا " كثير ما حكم في قضايا معقدة وشائكة، لكنه في المقابل، أدخل، بسبب هذه الأحكام، بعض الشباب إلى السجون، دون تيقن من جرمهم. ربما أعدم بعضهم (هي ليست متأكدة من ذلك، رغم أنها سمعت كلاما في الأمر) دون ذنب. كان يتباهى بحيله وقدرته الإبداعية على جعل النصوص الجامدة تعطي جانبها المستور. كثيرا ما سمعته يتحدث إلى جدها عن انتصاراته البارعة. اعترضت ذات يوم، قال جدها إنها مهنته، انتصاره في قضية، يشبه النجاح في صفقة تجارية. قالت إن الحكم في القضايا لا يشبه الصفقات التجارية، قال جدها إن عليها أن تكبر وتفهم الدنيا.

ما كان يريد جدها أن تفهمه لم تستطع قبوله، بسبب حادث صغير. دخلت ذات يوم غرفة الجلوس الواسعة، ورأت امرأة تلبس ملابس سوداء، تجلس على طرف الكرسي تمد وجهها تكاد تقبل يده. أرادت أن يتوسط لها (بحكم معارفه) للإفراج عن ابنها الذي اعتقل مع " الجماعات ". كانت تلك المرأة تعمل في السوق عند جدها. أعاد ذلك المشهد المناقشة القديمة. في هذه المرة لاذ الجد بالصمت. عرفت بعد ذلك حكاية الشاب الذي حكم عليه بعشرة أعوام من الأشغال الشاقة،

رغم أن جدها نفسه كان متأكد من أنه طالب مجتهد في كلية الطب، كل جريمته كانت المواظبة على صلاة الفجر.

كانت " ماجدة " تتكلم بحماس عدائي غير عابئة بأنها تتحدث ع ن رجل ميت. ظهرت الدهشة على وجه الأستاذ " توحيد " من تلك اللهجة الحماسية. صمتنا جميعا، فقد تعرفنا لأول مرة على الجانب العنيف من شخصيتها. عيونها تلمع، مركزة على وجه الأس تاذ " توحي د ". أذن الظهر في المسجد القريب من المكتبة. لم تقطع حديثها، كما يحدث كل يوم. استمرت تعدد عيوب الرجل الميت؛ البخل والرشوة والعم ارات الثلاث في شمال المدينة. أوردت تلك الصفات كأنها تعدد مزاياه. قالت بصوت واضح وبنبرة خفيضة، في يوم خروجه على المع اش، الي وم التالي للتقاعد " تخيل ؟ " صمت التليفون. شك كل من ف ي البي ت أن الحرارة قد قطعت ولم يجرؤ أحد على الاقتراب ورفع السماعة، ليتأكد من ذلك، لم يكن أحد في البيت بقادر على مواجهة حقيقة أن التليف ون الذي لم يكن يكف عن الرنين، قد مات فجأة، في أول يـ وم م ن أيـ ام المعاش.

صمتت، وراحت تزم شفتيها، محاولة السيطرة على توترها. قال ت دون أن تخفف أو تبدل طريقتها في الحديث:

" أنت ليه مصلتش الضهر جماعة يا أستاذ ؟ "

لا يستطيع المرء أن ينسى بسهولة حدة الصمت في تلك اللحظ ة. تطلعت "نادية " بغضب إلى " ماجدة "، وقامت متعمدة أن تزيح الكرسي

على البلاط حتى يحدث صوتا، كي تبدد التوتر. سـ ـارت إلـ ـى بـ ـاب البدروم، ونادت على عم "محمد " ليحمل مجموعات الكتب الجاهزة إلى قاعة القراءة.

خلفت " نادية " مساحة نفذ منها الأستاذ " توحيد " وغادر البـ ـدروم. توجهت إلى مكانها قائلة إن ذلك لا يصح. كانت ماجدة مازالـ ـت فـ ـي توترها، قالت إنها أرادت أن تضع حدا لطريقته معها، أرادت أن تمنعه من أن يستخدم الحديث الديني أداة للغزل، وذكرتها باللقاء السابق الذي راح يتحدث فيه عن حرصه حرصا كاملا على أداء الصلاة جماعـ ـة، يومها كانت " نادية " تبتسم، لماذا تدافع الآن عنه، وهي التـ ـي كانـ ـت تسخر منه قبل ذلك ؟

قالت وهي تترك المكتب، وتتجه إلى منضدة بجوار الحائط نضـ ـع عليها الكتب الجديدة:

" ليه الواحد يعيش بوشين "

وقفت " نادية " غاضبة، وحملت حقيبتها وغادرت المكان. بعد قليل ألقت "ماجدة " قلمها، وخرجت هي الأخرى. قبـ ـل أن تتـ ـرك مكتبهـ ـا وجهت بصرها إليّ، لم أفهم معنى ذلك حتى اليوم. نظرة بها كثير من العنف والغضب، وربما ظل من الكراهية.

في اليوم التالي جاءت مبكرة، وعندما دخلت توجهت إلى " ناديـ ـة " واحتضنتها قائلة:

" أطلبك خمس مرات متردش عليه؟ ".

احتضنتها مرة أخرى معتذرة عن عصبيتها. جلستا في ركن بعيد تتحدثان. يبدو أن " نادية " نسيت الإهانة بسرعة، كانت تنظر إلى زميلتها، وعيونها متسعة من الدهشة ومستغرقة في الضحك.

في ذلك اليوم تجاهلتني تمامًا. كنت أعاني من دور برد، ومن إحساس بالوحدة بعد زيارتي لعمي وعرضه عليّ أن نبيع بيتنا وننتفع به، بدلا من تركه خربا، وكنت أعرف أن ذلك لن يتم مادمنا لا نعرف شيئا عن مكان حسام.

* * *

بمرور الوقت أصبحت معتادا على وجود " ماجدة "، بل أخذت تكون لنفسها شخصية فريدة. تشكلت صورتها لا من خلال حكاياتها عن نفسها، بل أثناء تفاعلها مع حكاياتي. لأول مرة تشكل حياتي الشخصية مادة يتم صياغتها في عبارات؛ سرد طويل في بدروم دار الكتب؛ مرايا تعكس أحداثا ماضية تم بعثها، بنوع من الحنين، والرغبة في الفهم وتوضيح الذات، والراحة التي يجدها المرء في إنصات شخص آخر. شغف " ماجدة " بالإنصات إلى الحكايات والتعليق عليها ساعدني على إنتاج حكاية لها طابع خاص، مادتها أحداث حياتي، لكن اختيار التفصيلات خضع لطبيعة الرسالة التي أردت توصيلها، والتي كنت أجهل محتواها.

بمرور الوقت أصبح واضحا ما أحكيه وما أحجبه، أصبحت واعيا بظل الصورة. إنصاتها وترقبها أعطى أهمية للحكي، وجعل منه حدثا،

ليس مجرد "رغي". أذكر أول مرة حكيت لها عن "حسام" وبيادة ه، ضحكت إعجابًا بسلوكه، ودخلنا في نقاش أخذ سمة جادة، وبين اختلافنا في تفسير الحدث. كنت أردد، دون وعي، حجج أمي المنح ازة ضد سلوك "حسام" وأفكارها حول انهيار القيم، الذي يدفع شخصا إلى تعليق بيادة على الحائط بدل صورة أبيه. وضحت "ماجدة" ذلك الانحياز بسؤالها عن السبب الذي يجعلني أرى في سلوك أخي نوعا من التسيب رغم أنه لم يضر أحدا. قالت إنها مجرد رغبة في أن يرفع الحذاء ويعلقه على الحائط، يفصله عنه ويراه بعيدا ليس جزءا من حياته. قالت إننا أحيانا، نرغب في مشاهدة أمور تخصنا مفصولة عنا. حكت عن أنها تحب شعرها، إنه طويل أسمر، ترغب في رؤيته ليس معكوسا في مرآة أو في إعجاب الآخرين بل أن تراه بعينيها. قالت إنها أحيانا تمنع نفسها من أن تقصه وتضعه أمامها وتتفرج عليه. لا تريد أن يكون موضوعا للمشاهدة من قبل الناس، ولذلك تحجبه، تريد أن يكون موضوعا للمشاهدة من قبلها هي.

قالت ذلك بانفعال، دون أن تنتبه، إلا بعدما تورطت في الحديث، إنها تتحدث عن أمور تخص جسدها، تبدلت لهجتها أثناء ذلك قليلا. ربما ما نبهها هو اهتمامي بوصف شعرها، لكنها استمرت في الحديث غير عابئة بشيء. تواطئا مع جعل حديثها عن شعرها أمرا عاديا، تحدثت بلهجة بين المزاح والجدية عن مدى اعتبارها الحجاب فرضا في هذا السياق، ابتسمت وقالت بنفس اللهجة المازحة:

"أنت هتوديني في داهية"

لم تكن نيتي صافية، عندما حاولت أن أتيح تسامحا مع حديثها ع ن جسدها، وحولته، بمزاح، إلى مناقشة دينية ع ن ف رض الحج اب وتاريخه. لم يكن الهدف من إتاحة فضاء من التس امح أم را يخ ص التسامح، بل يخص خلق مساحة قد تعود إليها ماجدة، بعد ذلك، لتحكي عن جسدها. شككني هذا الحديث في تصوراتي الساذجة عن " البيادة " التي ظلت حتى ذلك الوقت تغص بأحزان أمي. أدخلتها ماجدة بحديثها عن شعرها في منطقة أخرى من التأويل، وعرفتني على طبيعة ذهنه ا وحيويته، وتناقضه أيضا.

خيل إليّ أحيانا أنني لم أقل لها كل شيء. وما أخفيه (ذلك الغامض المرتبك) يقلقني، ولا أجد طريقة لحكيه، أو تجس يده، فأعي د إنت اج الحكاية بصورة أخرى. تظل هناك أطياف داخل الحكايات معاندة غير قابلة بطبيعتها للحكي. لا أقصد تلك الأمور التي يحجبها المرء كالعيوب النفسية ولحظات الضعف والمخالفات الأخلاقية أو الوضع الطبقي، بل أقصد أمرا جوهريًا يتراءى للذهن كأنه القوى التي تح رك الأح داث، تصنع التغيرات التي تحدث للمرء وتقوده في طرق الحياة، وتبدو كأنها الأسباب التي دفعت الحياة لأن تأخذ هذا المجرى دون غير ه. القـ درة الغريبة للأحداث الصغيرة على تشكيل مسار الحياة وإعطائه ا طابع ا آخر.

بعدما رحلت " ماجدة " عن المدينة، أدركت أنه رغم استعصاء تلك الأطياف فإنها تسللت وسكنت صلب حكايتي، بل شكلت العمود الفقري لها، شكلت الاتجاه، الذي سارت فيها الأحداث والـ ذي ظننـ ت وقـ ت

الحكاية أنه مسار الأحداث نفسها لا المسار الذي اخترته لكي تبدو حياتي (لنفسي وأمام ماجدة) على هذا النحو.

اعتمدت الطريقة التي حكيت بها أحداث حياتي، على إبراز لحظات طارئة فقدت فيها مستقبلي كما أعددت نفسي له. ربما أنتجت تلك الطريقة في الحكي لكي أعرفها بأن هذا الشخص الذي يحدثها ليس قط هو وضعه الحالي، سماته الآنية، وإنما هو شخص آخر وإمكانيات أخرى تم إهدارها. وهذا الشخص ما هو إلا خليط من ظروفه الحالية وتلك الإمكانيات المهدرة، صورة باهتة من شخص ظل هناك لم يتحقق، كان يمكن أن يكونه، لكنه وقف هناك بعيدا غير قابل للتحقق بسبب أحداث صغيرة طارئة، ارتفعت أثناء الحكي وأخذت سمة الأقدار التي لا مناص منها. كنت أصور لها نفسي باعتباري بطلا مهزوما ضحية لظروف قدرية لا يمكن إزاحتها مع أنني أدرك أن الأمر كان غير ذلك.

أخذت حكايتي عن أبي مسارا حاولت فيه أن أبرر حيوية وحتمية اللحظات الفارقة في حياتي. تم تحديد ذلك بناء على هذا الهدف الخفي، فأخذت حكايتي الصورة التي ظهر فيها أبي حيا مسيطرا على المكان، له صدى في أذهاننا وسكوننا رغم كلماته البسيطة وانشغاله الدائم بتصليح الحنفيات وإعداد مدخل البيت الجديد وصنع كراسي أو سلالم صغيرة من قطع مهملة من خشب البناء. في تصوري كانت أهدافه تسيطر على الجو وتسري فيه، تسللت وسكنت طريقة تفكيري، لأنني كنت الأقرب له؛ الشخص الذي يرافقه فترات طويلة. تشربت الجو

الذي يحيط به، وأرخت – دون أن أدري – لتلك اللحظة التي تماهي ت فيها مع أهدافه، بالفترة التي كان فيها مشغولا بتشييد بيتنا الجديد عل ى أطراف المدينة.

كنت في الصف الأول الثانوي في نهاية السبعينات. بع د ص لاة العصر نشق طريقنا في حواري المدينة إلى ذلك الشارع الواسع خل ف مدرسة المعلمات. الطريق ما زال ترابيا وبعض الغيط ان مزروع ة برسيم. تبدو نهاية الشارع مضببة في ضوء المساء المتلاش ي. نلم ح أشباح السيارات بعيدة على الطريق السريع، بعيدة جدا، غي ر مح ددة لكنها هناك، فندرك أننا أصبحنا على أطراف المدينة. أتذكر ص ورته في تلك الأيام. كان يبدو فرحا يتحرك بهمة وانتباه في غرف لم تك ن غير فضاء محاط بالطور الأحمر، وسقف من الأسمنت، مصرا عل ى أن هذا هو البيت. كانت مخلفات البناء في كل مكان؛ قطع من الخشب بقايا " شكاير " الأسمنت والرمل، وبعض قوالب الطوب وقطع البلاط. ضوء العصر المتلاشي يدخل من النوافذ الخالية من الشبابيك، وأنا في حيرة من أمري، لا أستطيع تخيل أن هذا الفضاء سيصبح بيتا. يحتـ اج الأمر إلى عملية سحرية تحول هذا المبنى النيئ إلى بيت. كنت أش عر بالترقب مثله. أنقل معه البلاط إلى الداخل وأرص قوالب الطوب ف ي مدخل البيت تحت السلم، محاولا أن أعطي هذا المكان روح بيتنا ف ي الحارة دون جدوى. كان ذهن ذلك الصبي لا يقبل نقـ ل أثـ اث البيـ ت الأصلي، بل كان يريد نقل جغرافيته وروحه. طول الوقت كنت غي ر قادر على نقل الصالة بكنبها وغرفة النوم والمطـ بخ القـ ديم والغرفـ ة

الوسطى ذات الشرفة الواسعة التي وضع بها التليفزيون ونقضي فيها ليالي الشتاء، وغرفة الصالون بكراسيها القديمة المغطاة بالبياضات. كل تلك المحاولات باءت بالفشل. لا تريد الصورة أن تتشكل، أن تسكن هذا الفضاء الذي يسميه أبي بيتا.

انتقلنا لنعيش في البيت الجديد قبل أن يكتمل البناء. تم ت بع ض أعمال المحارة وتركيب الزجاج للنوافذ ودهنها أثناء إقامتنا. تحمل تلك الفترة طابعا داكنا. كان أبي يهتم بكل التفاصيل، يشتري ك ل ش ي ء؛ الكراسات والأقلام والكتب الخارجية والشرابات والأحذي ة والأطق م الداخلية. ما يخص الإنفاق كان أبي يتحكم فيه. يرعى بحس غريب تلك الأشياء التي تلزمنا، ويدخلها ضمن حساباته الدقيقة للنفقات.

أتذكر خجلا رافقني فترة طويلة، ربما لم أتخلص من آث اره حت ى الآن. كان الحذاء الذي بدأت به الصف الثاني الثانوي قديما، تم فحص حالته في بداية العام الدراسي، وتقرر أنه يمكن أن يتحمل عدة أشـ هر، لكنه خان القرار، وثقب نعله. بدأت ألاحظ أن الشراب يتسخ ويغط ي التراب قدمي كلما عدت من المدرسة. لا أدري ما الذي منعني م ن أن أبوح لأبي بالأمر، لم يكن الخوف أو هكذا أظن، ربما كان نوعا م ن التشرب الغريب لروح عائلة ليس لديها فائض لشراء ح ذاء. تناس يت الأمر. كنت قادرا على تحمل الأشهر المتبقية رغم أنها ب دت كعم ر طويل يجب أن يعيشه المرء مختبئا، وحاسبا الأيام يوم ا بعـ د يـ وم. اكتشف أبي الأمر، ربما رأتني أمي عندما كنت أفرك الوسخ وأنف ض الشراب قبل أن أرتديه في الصباح. يوم الجمعة لم أجد الحذاء أمام باب

الشقة كالمعتاد، قالت أمي إن أبي أخذه ليركب له نصف نعل. في صباح السبت التالي وجدته بجوار الأحذية ملمعا في انتظاري. تخيلت بحزن تلك الجلسات التي تمت، في السر، للتفاهم بشأن الحذاء، ورحلة أبي إلى محل قديم لتصليح الأحذية في حارتنا القديمة. تلك العمليات التي تمت دون معرفتي كانت محل نقمة. غدا الموقف أكثر صعوبة من ذي قبل. كنت قادرا على احتمال الصورة القديمة للحذاء أكثر من صورته الجديدة، فقد جعل هذا البعث الجديد منه قدرا، والأشهر التي كنت أعاني من وجوده في صمت بدت بهذا الترقيع وقد امتدت عاما كاملا، وربما أكثر، وظهر في نظري أكثر قبحا، كامرأة تم تزيينها بإسراف، فبدل أن يداري التزين القبح كشفه. كان احتمالي للحذاء المثقوب يعيش على أمل التخلص منه، كنت سجينه لعدة أشهر فقط، سيذهب كلا منا في طريقه بعد ذلك، لكن مع إعادة تجديده بدا أنه قد كتب علي إلى الأبد. امتلك هذا الحذاء صفة أبدية، وبدا أنه يمكن أن يبعث بلا نهاية، فكلما ذاب نعله، يمكن تركيب نعل آخر، ولو ذاب وجهه يمكن تركيب وجه آخر. خطرت لي أفكار كثيرة للتخلص منه، أسهلها أن أنساه في الجامع وأدعي سرقته، أو أركل كل طوبة تقابلني أو أمزقه نعلا ووجها بموس الحلاقة. كنت غير قادر على تنفيذ تلك الأفكار. تشربت ذلك الشح الذي ساد منذ بناء البيت الجديد، فقد كان جزءا من حياتنا ذلك الصمت المتواري الذي يتم به ضغط النفقات، وقضاء وقت طويل في عمليات حسابية، يدور الهمس بها في كل وقت.

أثناء تلك السنوات البعيدة، كان المرء يشعر بقدوم الليل قوي ا ف ي منطقتنا الجديدة. أعمدة الإنارة القليلة غير قادرة على تبديد هجوم الليل، ولا السكون الذي يعقب أذان المغرب، كأن المكان أصبح معزولا ع ن المدينة. كان هذا الحس مغاير لونس الحارة التي نشأت فيها ا. أحياد ا أثناء عودتي من عملي في الصيدلية أتذكر مخاوف غامضة كثيرا م ا انتابتني وأنا عائد من دروس الثانوية العامة، ف أدرك أن تل ك الأي ام ستبقى مساحات داكنة في الذهن.

بعد موت أمي، لم أزر بيتنا إلا مرات قليلة، تحت إلحاح نورا، بأننا يجب أن نفتح البيت ونهويه، فهو ما زال بيتنا على حد زعمها. أحياد ا أفكر في الخلاء الذي يحيطني وأرغب في زيارة حارتنا القديمة، أذهب وأجلس بعض الوقت مع عمي أمام ورشة السمكرة، أنصت إليه يتحدث عن أبي وإصراره على أن يخرج من هنا. إصرار غريب كان ط ول الوقت محل تفكر وتفسير من عمي، ذلك الخروج ال ذي ش عرت ب ه كأساس لحالة الوحدة التي أعيشها، والغريب أن عمي قبل أن ي ودعني كان يوصيني بأن أمر عليه ولا أطيل الغياب.

كنت عاجزًا عن فهم القوة التي دفعت أبي لينفذ حلم بناء بيت، ظن أنه سوف ينقذنا، اعتراضي الداخلي على انتقالنا من الحارة ساهم ف ي إيجاد وسائل أحاول بها أن أفهم أمر البيت كما يفهمه هو. أحـ اول أن أبرر تصرفه. يخلق رفضك لسلوك شخص تحب ه، ش عورا بال ذنب فتتماهى معه أكثر، تحاول أن تضغط على نفسك حتى تقب ل منطق ه. رغبته في الترقي الاجتماعي، رغم ما تركته من كوارث، أمكنني أحيانا

أن أفكر فيها على نحو إيجابي. بدأت أراها من زاوية كفاحه الشخصي لخلق مناخ مختلف لأولاده. رحت أقدر الصعوبة التي واجهها موظ ف في إدارة تعليمية لكي يبني " بيت ملك " من ميراث صغير ومن وظيفة يأكل عائدها التضخم.

نفرني ذلك الجو المكتوم. نمت في داخلي بسرية، رغبة في تركه، تجسدت في الطريق الوحيد الذي كان متاحا حتى ذلك الوقت: التعل يم. كان الحل في الخروج من تلك الحياة هو المذاكرة، التي كانت تجس يد لحلم أبي في الصعود. تضافرت عناصر متناقضة كي تخل ق المذ اخ الذي عشته: كراهيتي للجو الذي خلقه أبي تجسدت في شيء يرى فيه هو قيمة كبيرة. شكلت تلك العوامل نزوعا للمذاكرة بدا كأنه نابع م ن أعماقي. أعطاني التفوق ميزة دارت قليلا على أمور عشتها كخج ل لا يمكن الشفاء منه، مثل رثاثة الثياب وقلة المصروف وعدم القدرة على الارتياد الأسبوعي للسينما مثل بقية زملائي، أو الاشتراك في رحلات حتى أنني لم أر البحر إلا في عامي الجامعي الأول. ساعدني التف وق الدراسي على هزيمة أشياء كثيرة.

قبل امتحانات الثانوية العامة جاء مرضي الأول، حكيته لماجدة على أنه إحدى اللحظات الفارقة في حياتي، وأعطيته، دون وعي، س مات " قدر " قادني في النهاية إلى بدروم دار الكتب. المرض المفاجئ كان في بدايته " دور برد "، تطور إلى متاعب في الكبد والصفراء. اس تغرقت فترة طويلة في زيارة الأطباء والمستشفيات وعيادات التحليل والأشعة. بعد أن كنت مؤهلا لدخول كلية الطب وجدت نفسي في كلي ة الآداب.

أعددنا أوراق التنسيق بصمت، دون أن يتحدث أبي عن إعادة الثانوية. بحزن كنت ألصق كوبونات الكليات غير قادر على البوح برغبتي في أن أحصل على فرصة ثانية، وقف – دون ذلك – خوفي من أمراض مفاجئة ومعرفتي بظروفنا المالية، وقد لاحظ أبي حيرتي فقال، قارئا ما أفكر فيه، إنني يمكن أن أعوض ما فاتني في الكلية.

كان جو الجامعة مبهرا، ينفلت الشباب من قيود المدارس، يجربون نوعا من الحرية، إحساس مفاجئ بأنهم أصبحوا كبارا. السبعينيات، تتغذى على التصورات والمشاعر التي تركتها في الخيال أغاني " عبد الحليم حافظ "، غير إنها بدأت تذبل وتفقد أثرها بالتدريج ويدخل الفضاء العاطفي للشباب أغاني جديدة تدعو لفتح " زراير " القمصان للنسمة والأماني وإنارة الفوانيس وملأ العالم بالأغاني. كانت فترة مرحة جاءت بعد عتمة سنوات الحرب، وكان تأثير أغاني الشباب له طابع محرض على نوع أكثر صراحة من العلاقات القديمة التي تعطي كل لفتة أو نظرة طابعا رومانسيا.

كنت حذرا في خطواتي الأولى، وانحزت للحس الديني الذي كان يزداد كثافة وترسخا في المقابل، فالطريق الذي اخترته كان مسيجا بالتعاليم الدينية والمحافظة على الصلوات في أوقاتها. هذا المناخ الثاني مناسب لطموحي، ورغبتي في تنفيذ حلمي. قضيت سنوات الجامعة في منع نفسي بحدة من أي أمر يشتت تركيزي، وتحركت بين زملائي غير عابئ بسخرياتهم، متقبلا اللقب الذي وصمت به بأنني " موس "، أوجه إليهم رؤيتي المضادة بأنهم شباب فاضي.

مرت علي لحظات صعبة عالجتها بالضغط على نفسي في الدراسة، غير إن ذلك لم يمح كليا الإحساس بأن ظلا داكنا يحيط بأفكاري. بمرور الوقت ازداد ضغط إدراكي لأجساد البنات كنت أجد في نفسي ميلا يقترب من الهوى في مراقبة حركتهن، طراوة الخطوات والميل والانحناء والضحك. يحدث ذلك في بداية العام عندما يبدأ التزاحم على نقل الجداول أو دفع المصاريف أو التجمع أمام المدرجات أو أثناء الخروج من المحاضرات. تتوارى تلك الرغبة مع انشغالي المتزايد بالدروس، ثم تهب متوحشة عندما تطلب مني زميلة ملخصا أو تستشيرني في صعوبة إحدى نقاط الدراسة. في بعض الليالي أشعر بأن جسدي يمكن أن يأكلني وأخاف من الأحلام " الداعرة " التي تنطلق من مصدر داخلي لا يمكن الوصول إليه، يتم فيه تخزين الصور وخلطها حتى يفيض عن الحد فتبدأ سلسلة من الأحلام، يستيقظ منها المرء مبلل الثياب خجلا من نفسه، من روحة المستترة الفاسقة.

أثناء حياة أبي كان المرء مسئولا عن أحلامه، عن كونها أحلاما غير تقية، فعندما يحلم المرء بكل تلك الأجساد فإن ذلك دليل على أن به شيئا فاسدًا، مهما صليت وذاكرت فقد ظلت أحلامي غير تقية، وشكل هذا عبئا من الصعب تحمله أدى إلى صلوات مكثفة ورغبة عميقة في الاقتراب من الله الذي يمكن له وحده محو تلك البثور من عدم التقوى التي تعيش في ظلمات الروح الخفية.

ظلت " علياء " طول تلك السنوات أقرب زميلاتي، وبقيت علاقتي بها بين الزمالة والود الخاص، تأتي عليها فترات من تقارب يصل

أحيانا حد التلامس، لكننا نتباعد بسرعة. في العام الأخير تطور الـ ود بسرعة فائقة ودون وعي إلى علاقة جنسية كاملة. في اليـ وم الشـ توي الذي تم فيه ذلك خرجنا من الكلية واجتزنا بصمت أكشـ اك السـ جائر ومحلات التصوير بجوار سور المدرسة الابتدائية وانتظرنا سيارة أجرة في شارع جانبي. حذرتني علياء من تهورنا في المرة السابقة وقالـ ت إننا يجب أن نحترس، يجب أن نترك شيئا للمستقبل، يمكن لنا أن نتمتع بكل شيء، ما عدا " هذا ". تم تواصلنا الجنسي الكامل في هـ ذا اليـ وم بالذات، كأن حديثنا كان تجسيدنا لمخاوفنا من القرار الذي كان يتشـ كل في أجسادنا بسرية.

اختفى خوفها وتوترها بعد ذلك. جلست على طرف السرير قدماها العاريتان دقيقتا التكوين لا تصلان إلى أرض الغرفة وكتفهـ ا مغطـ ى بسترة بيجامة والبطانية مفرودة على فخذيها ووسطها، عيناها مركـ زة بعمق واستغراق على أرض الغرفة، ترفعهما، لحظات قلائـ ل، تلقـ ي نظرة متمهلة على بقعة الدم غير منتظمة التكوين فوق ملاءة السـ رير، ثم تعود تنظر إلى أرض الغرفة. كنت قد ارتديت ملابسي وقفت مستندا إلى باب الشرفة المغلق، ولأول مرة تبدو لي شقة خالها ضيقة مهـ ددة، رفعت عينها ونظرت إليّ بصمت، وقالت: "أنا مش خايفة ". انتظـ رت أن أتكلم، لكن ذهني كان خاليا من أي لفظ. قالت علياء: " كنت خايفـ ة وأنا في الشارع ". لم أجب مرة أخرى. " دلوقتي مش خايفة ". كانـ ت الكلمات جادة، كأنما تأمر نفسها بعدم الخوف.

لم نلتق بعد ذلك غير مرات قليلة. في المرة الأخيرة تبادلنا كلمات قليلة. كان اللقاء ثقيلا وقصيرا، ثم رحت أهرب منها بعد ذلك، وأحملها بطريقة ما مسئولية ما حدث، أصفها بيني وبين نفسي بأنها مستهترة، شهوانية، كانت ستفعل ذلك مع أي شخص آخر. يقيني بصدقها الذي عاينته كثيرا، حتى في المرة الأخيرة، تحول إلى طيف لا يتدخل في جو الاتهام الذي أقمته لها بداخلي. قررت أنني لا يمكن أن أتزوجها، وتحول عجزي عن مواجهة الموقف، إلى تكوين صورة متسقة لفسادها. استخدمت أفكارا كانت سائدة في أجواء الشباب في ذلك الوقت، أقواها أن المرء لا يمكن أن يتزوج فتاة نام معها قبل الزواج. يبدو أنها لم تكن قادرة على صيانة أسرارها، أو عانت يأسا أدى بها في النهاية أن تعترف لأمها بما حدث بيننا. منعتها أسرتها من الترد على الكلية، وأثناء الامتحانات كانت تأتي في سيارة تنتظرها على باب الكلية، وقبل أن تظهر النتيجة عرفت أنها سافرت إلى الإمارات.

في مطلع مايو من ذلك العام توقف اهتمامي بكل شيء، النظام الراسخ لمواعيد النوم واليقظة وتناول الوجبات والصلاة والمذاكرة أصبح فجأة بلا معنى. لم تكن حالتي مبنية على أفكار، كانت نوعا من التوقف الأبيض الخالي من المشاعر. انشغلت بالتحايل على حياة البيت، أتوارى وقت أداء الصلاة وإن سئلت أكذب، قائلا إنني أديت صلاتي، لأول مرة أغيب فترات طويلة عن البيت، مدعيا المذاكرة مع زملائي. جربت مرة أو مرتين إيقاظ نفسي، تذكرت المستقبل والحياة التي سوف أفقدها بهذا " التسيب ". كان الأمر خارج سيطرتي، كلما حاولت

المذاكرة وجدت الصفحات بيضاء، كلما عاندت وتوقفت عند الجمل أحاول دس الأفكار في رأسي، لا يتبقى في الذهن غير بياض يشبه ضباب الصباح.

وصفت هذه اللحظة لماجدة، تقريبا، بنفس الألفاظ التي وصفت بها مرضي في الثانوية العامة، وصفتها كأنها مرض عضوي، أحداث قدرية لا يمكن الإفلات منها، وساهم تعلقها على إقرار الزيف الذي أنتجته، فقد قالت إنني أشبه لاعبا رياضيًا، يكون جيدا جدا في التمرين ويرتبك أثناء المباريات المهمة ويفقد البطولة. أعطي ذلك الرأي مناخا لأفكاري وساعد على ترسيخ الفهم الموجه لحكايتي، بل جعل عودتي من العراق – في لحظة ثالثة طارئة وقدرية – له مذاق الحقيقة. حياتي كلها أصبحت بناء على هذا الحكي لها سمة الطريق الذي لا محيد عنه والذي شكلته ظروف خارجة عن إرادتي.

استمد هذا التصور جاذبيته من نفي إرادة الفرد، من رؤية المرء لنفسه باعتباره " ضحية ". في هذا التصور تتم المصالحة بين ذلك الشخص النابه والمستقبل المهدر هناك، وبين الأوضاع الحالية. تلك الحكاية المزيفة لا يمكن فهمها أثناء حكيها، بل عندما يضع الزمن مسافة بين المرء وبينها، عند ذلك يمكن لمس تلك التيارات التحتية التي أنتجت الحكاية. بعد سفر " ماجدة " وخروج " حسام " من السجن، عرفت الكثير عن زيف تلك الحكايات وأدركت أنني لن أقدر على تغيير أي شيء، فقط عليّ ألا أكون أعمي، عليّ أن أدرك الرغبة المجردة في الفهم مشتعلة قدر الإمكان، ففيها تتجسد إرادة لا تجد لها

مجالا في الخارج، إرادة تم تكسير أسنانها بـ الفهم المغلـ وطـ وبطـ رق الحياة المغلقة. كنت أدرك الجانب الوهمي في هـ ذا التصـ ور أيضـ ا، وأدرك أنها مجرد طريقة لاستهلاك الحياة في عمل (علـ ى الأقـ ل) مختلف عن النواح وندب الحظ وتحميل تعاستي على الظروف، كذ ت أدرك أن حياتي سوف تستهلك نفسها في رغبة الفهم المجـ ردة التـ ي تعيش فيها إرادة الحياة بشكل شبحي.

بعد انتهاء فترة تجنيدي، في منتصف الثمانينات، بدأت أعد أوراقي للسفر للعراق. واجه أبي بالصمت ما سمعه من أمي ومـ ن "ذ وورا " حول سفري. كف عن متابعة أخباري بتسليم صامت بـ ه قـ در مـ ن الحزن، يبذل جهودا غير ناجحة لإخفائه. كان واضحا لكلينا أن الصمت الذي سكن بيتنا منذ ذلك الوقت يخص فشلي في إنجاز الطموح الـ ذي تواطئنا على خلقه معا. عرفت في تلك الفترة حالة من التسيب، كانـ ت صدى لإحساسي بالاستقلال. فرحت بخفتـ ي واسـ تهتاري، وأحزانـ ه الخاصة كانت بعيدة عن التأثير في، وإن لمحت أحيانا ظلا من الذنب. كنت فرحا بحرية لم أعرفها بالكامل إلا بعدما سافرت.

في العراق الحياة مفتوحة، المرء يتحرك خارج منظومـ ة خانقـ ة. هناك كنت خفيفا، قابلت الكثير من معارفي، وعرفت أناسا من جنسيات مختلفة، من المغرب وتونس واليمن والسودان، من بلاد آسيا السوفيتية ومن الفرنسيين والأكراد، عالم متنوع من البشر، وهناك تعرفت علـ ى كوني لم أعد طفلا. ما يطلق عليه الغربة هو مجرد حنـ ين رومانسـ ي لجو الشتاء في بينا أو لشوارع المدينة أو لحب "عليـ اء" الـ ذي راح

يجدد نفسه بطرق مختلفة، بدأ يصعد بعدما فقدتها، ولم تطفئه العلاقات السريعة التي أقمتها. المرء هناك بعيد عن منظومة السلوك التي قادته طول حياته. صحيح إنه داخل منظومة أخرى، لكن مسئولياته أقل كثيرا من تلك التي يرزح تحتها في وطنه. الكثير من تصرفاتك هناك مقبول لا يثير تناقضا في الداخل، ومحمي بشرط الغربة. أنت هناك بعيد عن الميراث العائلي الذي يكبح التسيب، ويجعل روحك ضيقة وفكرتك عن نفسك مزيفة، لا تتعرف على نفسك بكل ما فيها في غير الغربة حيث تتحمل مسئولية أصغر قرار.

في العراق جربت انفلاتا مرحا وخاليا من أي حس بالتحريم، لأننا كنا نعمل ونكسب ونسهر في النوادي الليلية، وفي أجازتنا وفي الأوقات الخالية من أي علاقة كنا نذهب إلى بيوت مخبوءة تبيع لنا متعا سريعة، لو استغرقنا في علاقات (نسميها في وطننا غير رشرعية) كانت بالنسبة لنا نوعا من المتعة لأننا بعيدون عن ذلك التأثير التحريمي الذي يمكن أن تأخذه تلك العلاقات في بلادنا.

استقر في إدراكي أن الحس الأخلاقي هو سمة من سمات المكان، فعلاقة بامرأة متزوجة في بلد غريبة، ليس لها هذا الحس الكئيب وتلك السمة التحريمية التي تطارد المرء بمشاعر الذنب حتى لو كان مستهترًا. كذلك فإن إقامة علاقة مع فتاة في وطنك له شروط اجتماعية، طريق يقود إلى التزامات، أما في الخارج فتتحلل من تلك الارتباطات، إذا أرت، دون تبعات كثيرة.

بدا لي أن الوضع النموذجي لحياة المرء هو وضع الغربة. وعززز رأيي ما رأيته هناك. كثير من الشباب الذين كانوا طلابا أو صبيان ورش أو حملة دبلوم الصنايع أو التجارة، رأيتهم يعيشون حياة متوترة خالية من الكآبة التي تحيط بالناس في الوطن، يبنون البيوت ويعيدون إصلاح الطرق والأجهزة الكهربائية ويديرون المحلات، ويصبحون أصحاب أعمال، عاشوا هناك حياة ممتلئة، تشعر بالحرية في حركاتهم ويشع سلوكهم بالثقة، إنهم ينجزون ويكسبون ويعيشون بملء إرادتهم.

عشت في مدن شمال العراق أكثر من عامين، لم أفكر في الرجوع. الرسائل المتبادلة مع أسرتي كانت قليلة، لم يكتب لي حسام مرة واحدة غير إنني كنت أجد تحيته في خطابات " نورا ". أحيانا أرسل نقودا. كنت أدرك أنني أعيش حياتي، ولم تطرأ فكرة العودة على ذهني مما جعلني أتعامل مع النقود بخفة، ولم أعبأ بقلة مدخراتي. كنت أسخر من أصدقائي عندما يتحدثون عن حنينهم إلى الوطن، ظنا مني أنهم يبالغون أو يعيشون " حالة "، لكن باستمرار الوقت أصبحت الحياة في العراق هي الأخرى خانقة، الحرب، والجو المكتوم المليء بالتوجس والخطر الذي تشعر به يحيطك في كل لحظة. كان العراق في طريقه أن يتحول إلى وطن. في ذلك الوقت بدأت صورة علياء تطل في ذاكرتي، وتمنيت أن أراها. أحيانا تظهر في أحلامي، تلومني على شيء ضاع منها، نظارة أو فردة حلق، وأحيانا أراها جالسة في بلكونة وحدها في الليل تائهة عن مكانها، مصابة بالتهاب رئوي وفي طريقها إلى الموت.

أحيانا ألوم نفسي لأنني تخليت عنها، لكن معرفتي بأن عمليات ترقيع غشاء البكارة أصبحت منتشرة خفف عني مشاعر الذنب.

كنت أعمل مع رجل كردي عضو في تنظيم ماركسي، دعاني مع مجموعة من العمال لزيارة مدينته في شمال العراق. صباح الجمعة كانت سيارته نصف النقل تقف بجوار الجسر العتيق في وسط الموصل. تركنا الفندق الصغير المطل على نهر دجلة في صباح ضبابي. كان النهر ضحلا يكاد يخلو من الماء. تحدثنا ونحن نغادر الموصل عن أننا يجب أن نركب غطاء من الصاج للسيارة، فالشتاء قادم وسوف ننقل العمال فيها. سرنا في طريق ضيق في قلب مساحة واسعة من الأشجار أطلق عليها الكردي " الغابات ". بعد فترة صعدت السيارة طريقا جبليا. كانت الشمس مشرقة والجبال عالية جدا. لأول مرة أرى ذلك الارتفاع الشاهق. لذت بالصمت بجوار زملائي الذين راحوا يثرثرون مع الكردي حول العمل. كلمة " شاهق " مجرد كلمة في كتب القراءة حتى يعانيها المرء بعينيه، لها صدمة مثل صدمة مواجهة البحر لأول مرة. قطعت السيارة طرقا منبسطة. عبرنا بعض قرى جبلية تلمع بيوتها الصخرية في أشعة الشمس. توقفنا في الطريق واشترينا عنبا، في أكياس من الورق، طعمه الطازج الرطب المسكر له ذلك الطابع المفارق لكلمة " شاهق ". وصلنا " دهوك " وقت أذان الجمعة. كانت الشوارع خالية تقريبا. في البيت الكردي لم ندر أي مخلوق غير ابن صاحب العمل، الذي كان يرتدي الزي الكردي؛ البنطلون المتسع الذي يشبه سروال البحارة في مصر، وتحدثنا قليلا

بهمس في الطابع الكردي الخالص لمدينة دهوك، وقربها من الحدود التركية.

لم أنم ليلتي فقد ظل جمال الجبال حيا، أوحى إليّ بأنني على مشارف الخروج. كنت قريبا من حدود أخرى. بدأت أفكر منذ ذلك الوقت في السفر إلى الخارج. سيطرت عليّ الفكرة ومسخت كل ما كنت أعيشه في العراق. بدت الحياة رمادية أيضا مثلها مثل الحياة في وطني، ورحت أنتبه إلى ما لم أكن منتبها له بقدر كاف قبل ذلك؛ الجنازات الصامتة للجنود الملفوفين بأعلام الوطن وهي تعبر شوارع الموصل وكركوك، وذلك الهمس الذي يدور به الحديث في شؤون الحياة، والحزن الدفين الذي يؤدي به الناس أعمالهم. بدأت أخطط للسفر إلى أوربا منذ ذلك الوقت. لم تكف جبال دهوك عن إثارة خيالي. كان السفر متاحا؛ كثير من الشباب كانوا يعبرون الحدود إلى تركيا، ويعودون ببضائع ويذهب البعض للنزهة فقط. كان العالم مفتوحا، وظل الكآبة يمكن أن ينمحي بالأسفار.

وصلتني عدة خطابات من " نورا " تطلب مني العودة حتى لا أفقد تعييني في الحكومة، ولمّا تأخرت عن الرد، قالوا إنني يجب أن أنزل أستلم التعيين ثم أرجع مرة أخرى، ثم أرسلت نورا رسالة مختصرة ذكرت فيها مرض أبي، وشددت علي ضرورة الرجوع. تحت إلحاح فكرة السفر أكثر من أي أمر آخر قررت العودة في أجازة قصيرة. أحلام السفر من شمال العراق إلى تركيا لن تكون بعيدة، سوف تبقى هنا تنتظرني.

يوم عودتي كان " حسام " وخالي في انتظاري في السويس. ركبنا سيارة بيجو، انطلقت بنا في المساء. اندهشت لوجود خالي في انتظاري، وخمنت أمرا غير عادي قد حدث. بقينا صامتين ولم يبدأ في الحديث إلا بعدما تركت السيارة السويس وانطلقت في ظلام الطريق الصحراوي. كان صوته هادئا يحاول أن يفتعل أحزانا غير موجودة، قلت: " اعذرني يا خالي، اتكلم على طول ". أخبرني وقد أصبحت لهجته أكثر جدية أن أبي قد مات منذ عدة أيام.

أهانتني كثيرا صورة أبي يموت حزينا بسبب فشل حياته، وبشكل ما اعتبرت خيانتي لطموحه جزءا من حزن أدى إلى موته، وبدأت حياتي المفتوحة في العراق تكتسي بغلالة من الذنب في ضوء موت أبي، فقد كنت غير قادر على قبول صورتي وأنا أعيش على هواي في الوقت الذي يموت فيه حزيناً. استيقظت على واقع آخر. قضيت عدة أشهر أحاول اتخاذ قرار بشأن البقاء أو العودة. طول الوقت تصف أمي مسئوليتي. أخي لم ينه تعليمه وأختي التي لابد أن يتم تجهيزها، بعد مضي عامين على خطوبتها، وكانت تترك لي تخيل أنها لن تستطيع مواجهة تلك الأعباء وحدها، فقد مات ذلك الرجل الذي حمل عنها عبء الحياة. كان يتم سرد كل ذلك كنتف من أحاديث عابرة أثناء تناول وجبات الطعام أو جلسات المساء أمام التليفزيون. تترك لي أمي أن أختار. هذه الأحاديث جعلت اختيار السفر يحمل معنى الهروب وخيانة الرجل الميت مرة أخرى. في النهاية بدا لي أنني يجب أن أبقى.

بقيت عدة شهور بلا عمل، وكبديل لفكرة السفر، بدأت أفكر في أن أشترى سيارة أجرة، كنت قد تعلمت قيادة السيارات في العراق، واستخرجت الرخصة وبدأت أبحث عن سيارة، لكن كل شيء توقف عندما جاء خالي ذات يوم ليخبرني بأن أحد أقارب زوجته يرغب في ترك شقة في المساكن، وأنها تعد " لقطة "، وما عدت به من نقود يعتبر كافيا، ومن ناحية العمل فإننا لا يجب أن ننتظر التعيين الذي ربما لن يأتي ووعدني بأنه سوف يساعدني في شغل وظيفة أمين مكتبة في الثقافة الجماهيرية. في الأيام الأولى لاستلام عملي لم أكن أصدق تلك السرعة التي تبدلت بها حياتي، لم أصدق أنني يجب أن أستمر هنا للأبد، بدا أن ذلك أمر مؤقت، سوف أتحرر منه بعد تخرج حسام وزواج نورا ولكن لا شيء حدث من كل ذلك.

* * *

استيقظت من النوم وقد خطر لي أن " ماجدة " سوف تغيب اليوم عن العمل. كان ذلك يوم سبت، وهي تتأخر في هذا اليوم، أو تغيب بسبب وجودها عند عمتها في القاهرة. ذهب عن ضوء النهار بريقه وأصبح خاليا، فضاء أبيض محايدا، وحياتي أصبحت فجأة بلا معنى. كنت قد صحوت أبكر من المعتاد. " سهام " ما زالت نائمة. انزاح عن شعرها الإيشارب التي تربطه به قبل النوم. رائحة عطورها تفوح خافتة عندما أقترب بوجهي من المخدة. تركت الفراش. أحكمت الغطاء على " نبيل " الذي كان نائما في وضع الجنين، محاطا بكثير من اللعب، وعلى الحائط صورة كبيرة من صور " سلاحف النينجا " غامضة ومخيفة في ضوء الصباح.

تنبهت " سهام " لحركتي، وسألتني ساخرة عن الأمر العاجل الذي يجعلني أنزل في هذا الوقت المبكر، فادعيت أن بعض الأعمال تراكمت ويجب علي إنجازها. منذ وقت طويل لم أر خلاء الشوارع في الصباح. ما بقي من حس الصباح القديم هو عربات الفول على بعض النواصي وأمام المصالح الحكومية. الجو بارد والسماء غائمة. ما زال هناك أكثر من نصف ساعة على ميعاد العمل. اشتريت صحيفة مع أن المكتبة تقتني كثير من الصحف اليومية، رغبة في أن أفعل أي شيء يضفي على نزولي المبكر معني. أثناء تجولي أدركت، كأنما على نحو مفاجئ، أن " ماجدة " أصبحت مهمة في حياتي.

رغم أن " ماجدة " أصبح لها وجودها الفريد، غير أنها لم تفلت من أوهام ظلت تعمل في الداخل، موجدة صلات غير متوقعة بينها وبين "

علياء ": الشرود والحماسة أثناء الحديث والضحكة المنطلقة، وأحيانا نبرة متوارية في الصوت وتلك الملاحة التي تظهر في الملامح ولا يستطيع المرء إمساكها. انطباع غير محدد يوحي بهذا التآخي السري، كما يحدث عندما يقابل المرء شخصين ملامحهما مختلفة لكنه يدرك أنهما إخوة. كان ذلك يحدث خفية، وفي أجواء سرية. أحيانا وفي لحظات خاصة يعصف بكل أدلتي المؤكدة حول اختلافهما، ويسكن أفكاري حاملا معه يقينا بأن البشر لا يبقون على حالهم إنهم ينمون في الزمن، يتحولون إلى كائنات أخرى، ألم تر أخاك وقد أصبح شخصا آخر وأمك ألم تفقد قوتها وأصبحت حزينة ومترهلة وهي تفارق الحياة. لو رأيت " علياء " الآن فربما تكون لها نفس الطريقة في الحديث أو نفس السكون العصبي الذي تتميز به" ماجدة" في لحظات ضعفي لا أستطيع صد هذا الهاجس، بغير القول بأنني أصبحت مختلا قليلا، وأن هشاشة تكويني النفسي أصبحت سمة منذ عودتي من العراق.

ظل هذا الخاطر يناورني بطرق بارعة، يختبئ ويعطيني الانطباع بأنه غير موجود، ثم ينقض مرة واحدة ويتمسك بلمحة من " ماجدة " أو رائحة خافتة أو شرود أمام كوب الشاي في الصباح لكي يقول لي ألا ترى أنه نفس الشرود ونفس العبث بالأظافر أثناء الصمت، ألا تذكر؟ كنت أصدق أحيانا أن الهمس الداخلي الذي يصطاد أكثر اللحظات غفلة حتى يبث حديثه، قد يكون صحيحا، وأنه في يوم من الأيام سوف يتجسد هذا التشابه وكأنما ستقوم " علياء " من جوف " ماجدة ". ساعد في تأكيد هذا الإحساس أن " ماجدة " كان لها صخبها وانفلاتها، فعندما

أكون في غرفة الدوريات أو في بعض المشاوير خارج المكتبة، ألاحظ أثناء عودتي أن باب البدروم مغلق. عرفت أنهن يمارسن ألعاب البنات، يمشطن شعورهن أو يتزين، ألعاب صغيرة؛ ذكرى أيام الغداء في فصول المدرسة الثانوية أو بقايا تجمعات البنات في بيت العائلة.

ذات يوم عدت من الخارج، ولما رأيت باب البدروم مغلقا، رغبت في المزاح، طرقت الباب بشدة. سمعت صوت: " استنه شويه "، ثم استطعت تمييز صوتها: " سبوه يدخل ". بعد قليل فتحو الباب وهن يعدلن الإيشاربات، يعدن إلى صورتهن الرسمية كزميلات عمل، في حين بقيت ماجدة جالسة بهدوء في الركن تشبك دبوس الإيشارب أسفل وجهها. رأيت لون شعرها ونوعه، كان أسود ثقيلا وله بريق، ولما رأتني مسمرا في مكاني وسط حديثهن العاتب أخفت الخصلة النافرة على جبهتها تحت الإيشارب وخرجت غاضبة. رأيت أكثر أطياف علياء وضوحا، ومنذ ذلك اليوم لم أعد أستطيع الوقوف في وجهه الهاجس الذي كان وهما حتى تلك اللحظة، كان قد ناورني وامتلك طريقة نافذة في السيطرة على أفكاري. ربما بدأ التعلق الحقيقي بماجدة في تلك اللحظة.

لاح لي أن الإثارة التي تنتظرني كل يوم في بدروم دار الكتب هي مركز ثقل تدور حوله كل الأحداث، وجودها جعل البيت محتملا، وأعطت معنى مؤقتا، ولو بشكل واهم، لكل الأعمال اليومية، من انشغال في العمل وحساب المصاريف والتفكير في المدرسة التي سوف يدخلها " نبيل ". تحول البدروم من مكان كئيب إلى مكان حي، إلى

معادل مكاني لما نرغب في أن يتواجد على السطح، ورغم كل هذا فإن علاقتنا قد وصلت إلى نقطة توقفها. كنت أدرك صعوبة أي فعل إيجابي بيننا. الخطوط الوهمية التي تشكل حساباتنا العائلية والشخصية أعاق ت أي التقاء، أي تقدم في العلاقة عن ذلك الحد الذي ك ان يب رق كخ ط أحمر لا يمكن تجاوزه.

في ذلك الصباح أثناء تجوالي في الشوارع انتظار لميع اد العم ل أدركت بشكل ناصع ومخيف، أن تلك العلاقة أصبحت مهمة وحيوي ة، بالنسبة لحياتي، رغم وجود حس خافت بالذنب، تم ت معالجت ه ف ي الدورة التي لا ترحم للعمل اليومي. كنت أزيح ل ك المش اعر جانب ا عارفا أن أيامًا ستأتي تهب فيها أسراب الذنوب من نومها لتملأ فضـ اء ذهني، كنت أعرف أن ذلك سوف يحدث في وقت من الأوقات، وعلىّ فقط الآن أن أبقى قليلا بجوار الحس المضيء الذي أدرك زواله، أدرك – بشكل مؤلم – أنه مؤقت.

عندما كنت أبحث عن الأسباب التي قادتنا إلى هذا التق ارب، ل م أصل إلى غير " الحكي "، مندهشا من القوة الكامنة في سرد الحكاي ات التي تتيح لنا إقامة حياة بديلة إذا كانت الحياة الحقيقية غير ممكنة، تلك القدرة الغريبة على تشكيل تقارب يشبه التق ارب الجس دي. عمل ت الحكايات كمكان التقاء حقيقي لبشر لا يمكن أن يلتقوا ع ى الأرض، خلقنا استعارة حتى يمكننا أن نختبر هذا الوجود المشترك بيننا، وأسسنا تواصلا تحتيا أنتج تقاربا لم نفهمه، لا ه ي ولا أد ا، اتخ ذنا ض ده إجراءات عنيفة؛ إجراءات قمع أثرت بشكل درامي على حياتنا وزادت

من حدة تعلقنا. كل منا كان حريصا على حياة يرفضها ويعرف كذبها، كنا حريصين على صيانة تعاستنا.

لم أكن أتبين تلك التفاصيل وقتها فالاندماج في الحدث لا يجعل المرء يراه. من الصعب أن تكون مشاركا في الحدث وفاهما لاتجاهه، لأنه حتى تأويلك للأحداث وأنت داخلها هو تأويل يخص الكيفية التي عليك أن تسلك بها، ولا يخص الفهم، فهم مسار الأحداث، لا أحد يمكن أن يشارك في أحداث ويستطيع فهم مسارها بشكل تام.

في ذلك اليوم بعدما وقعت بالحضور، فكرت أن أعود إلى التجوال في الشوارع مرة أخرى، خائفا من عدم وجود " ماجدة ". حسب عاداتي كنت افترض الشر قبل وقوعه، أفضل أن افتراض عدم وجودها وأقبله من مواجهة الحس الداكن لعدم وجودها الفعلي. لم تأت ماجدة إلى العمل، وصعدت نادية وحنان إلى قاعة الدوريات لتعدا محاضر الاستهلاك. مر علي الأستاذ توحيد ليعطيني قوائم الكتب الجديدة، وتحدث بشكل عابر، مقصود، عن المعدلات المنخفضة لفهرسة الكتب، قلت أننا سوف نبذل جهدنا في الأيام القادمة. لم أكن أعني ما أقول، كنت أعاني من إحساس بأنني أطل على هوة عميقة تكمن خلف مشاعري. أطلعني غياب " ماجدة " على حس مملح بالفراغ، حتى خفت الاقتراب منها في الأيام التالية، ثم جاء يوم المطر ليطلعني على أن كل تحصيناتي غير منيعة.

دخلت البدروم في ذلك اليوم وهي تقول:

" الدنيا برد جدا المفروض ناخد أجازة النهار ده "

كنا وحدنا في البدروم. موجة المطر استمرت أكثر من المعتاد. لاحظت أنها عصبية، وعندما سألتها عما يقلقها قالت: " لا شيء ". جلست إلى منضدة صغيرة بالقرب من الباب. كنت أرتب مجموعة من الكتب الجديدة. رحت أتصفح محتويات بعضها محاولا الابتعاد عن الحديث معها. غالبا ما اشتبكنا في خلافات لا مبرر لها في الأيام الأخيرة. قالت إن الدنيا تمطر اليوم منذ ثلاثة أيام. بعد قليل كررت نفس العبارة. قامت وطلعت إلى قاعات المكتبة. عادت وفي يدها عدد من الصحف والمجلات. وقفت أمام باب البدروم تنظر إلى الجو في الخارج وقالت إن المطر لن يتوقف اليوم. اندهشت من الإيقاع الثابت الذي قالت به تلك العبارات. اقترحت عليها أن تستأذن وترجع إلى البيت. قالت إن المطر سوف يستمر أثناء وجودها في البيت أيضا. بعد قليل حملت المجلات وجاءت لتجلس بجواري وهي تسألني:

" بتحب الشتا ؟ "

أخبرتها بأنني لا أحبه ولا أكرهه. قالت:

" أنا بكرهه "

بدأنا حديثا حول تفضيل بعض الناس للشتاء وبعضهم للصيف. قالت إنها "صيفية ". ربما لأنها من مواليد برج السرطان. شهر يوليو، شهر جميل، ضوء الشمس الناصع المبهر، ليالي الصيف واسعة، مرحة، تغص باللعب والحكايات. تتذكر سطوح بيوت جدها في

الإسكندرية. الظلام الخفيف ومقاعد القش والخيزران، والراديو يبث أغانيه من محطة أم كلثوم. رائحة نباتات السطح التي ترعاها جدتها. جدها يحكي عن الإسكندرية القديمة وعن تجارة البن، والحياة الثرية في الميناء، وشوارع الإسكندرية والخواجات.

" الأيام دي راحت فين ؟ "

قالت بدهشة، وهي تتعجب فعلا من المكان الذي تذهب إليه الأيام بعدما انتهى، كأنما هناك مخزن تتراكم فيه كثياب مستعملة. أخبرتها بأنني خريفي لأن ميلادي تم في شهر أكتوبر، ربما لذلك السبب منحت تلك الطبيعة غير الحاسمة. تبادلنا أفكارا مازحة حول أن الناس يفضلون الفصول تبعا للشهور التي ولدوا فيها. يبدو أنها أخذت الموضوع بجدية، لأنها قالت إن حظي أفضل منها لأنني ولدت في الشهور غير الحاسمة. وأنها بسبب ولادتها في شهر يوليو تكره الشتاء، طول الوقت منذ طفولتها تخاف أن يحدث لها مكروه، حتى حدث ذلك فعلا وهي في الصف الأول الإعدادي، في أجازة نصف السنة في بيت جدها بالإسكندرية.

كان يوما ممطرا وعاصفا، وكان عليها أن تنزل إلى البقال لتشتري بعض الأشياء للبيت. شارع صغير عليها أن تعبره. خجلت أن تبوح بخوفها، ونزلت. الريح قوية صوتها عال، تزوم وهي تلمس الجدران، وتصدر عنها أصوات رفيعة لحيوانات مقيدة. وصلت الطابق الثاني. سمعت صوت ارتجاج النوافذ، ثم فجأة انفتحت نافذة السلم واصطدم الزجاج بالحائط وتناثر شظايا. صوت التحطم كان يشبه طرقعة شيء

يسقط من الدور العاشر. حاولت حماية نفسها. تعثرت، وسقطت متدحرجة على السلم. نقلوها إلى المستشفى. طوال أيام مرضها كانت خائفة من صوت الريح. رغم أن تلك الحادثة تشكل نقطة سوداء في علاقتها بالشتاء غير أن ما يربكها أكثر هو التوتر الذي ينتابها في بداية تلك الشهور. لم تسمع أبدا صوت المطر دون قلق وإدراك بأنها لن تستطيع تحمل نفسها، كثيرا ما قضت الشتاء حابسة أنفاسها، تبدأ في التنفس مع رائحة الدفء في نهاية مارس.

اكتست ملامحها جدية صلبة، ودخلت نوعا من الاستغراق. لم أكن أتصور في البداية أن أحداثا عابرة قد تشكل هذا الضغط، ورغم أنني أنصت في البداية بخفة لحديثها لكن تلك الجدية والاستغراق والحماس الحزين الذي سردت به الأحداث كأنها تحدث نفسها، جعلني أسكن تماما. أحيانا تنظر إلى وجهي، لكنها ما تلبث أن تبتعد ببصرها. قالت إنها أول مرة في حياتها تتحدث عن تلك الأمور، ونظرت إليّ متسائلة كأنها قد استيقظت من تنويم مارسته عليها مخاوفها. كنت أشعر أنها تحاول السيطرة على صوت تنفسها العالي، لكنه يفلت من سيطرتها ويظهر واضحا في ارتفاع صدرها وانخفاضه. كررت بصوت خافت – أظهر صوت تنفسها المتوتر – تعبيرات تنم عن دهشتها. كيف يمكن أن تحكي لي ذلك الأمر الخاص جدا. قربت وجهها مني، وطلبت أن أحتفظ بهذا الأمر سرا، ثم مدت كفها وأمسكت كفي وطلبت ذلك ثانية. لهجتها بها قدر من الرجاء، وكفي بين كفها تشد عليه غير واعية بما

حولها. ما أدهشني هو الأسباب التي تجعل من خ وف الإنس ان م ن المطر سرا، لذلك فقد بدا لي أنها تطلب مني، في الحقيقة، أمرا آخر.

أستطيع أن أقول إن هذا الاقتراب الذي لم يستمر غير دقائق، أشعل ما بقي لي من تماسك وأحرق الحزمة الذابلة من الأحداث والعلاق ات التي تسمى حياة. هذا الموقف تردد في موجات التداعيات أثناء عودتي من دار الكتب وأثناء عملي في الصيدلية وأثناء نومي. كان ب ه س ر يبحث عن فهم، وكلما ابتعدت عنه ازددت قربا من المعنى الذي خط ر لي وقتها. في اليوم التالي حاولنا أن نتصرف بشكل عادي، فلم نستطع، وانفجر بيننا خلاف حاد بسبب اتهام الأستاذ " توحيد " لنا بالتهاون ف ي العمل وإهمالنا لفهرس الدوريات وتأخر فهرسة المراجع عن المع دل المطلوب، تبادلنا الاتهامات وألقى كل منا اللوم على الآخر.

كثيرا ما حدثت بيننا خلافات من هذا النوع، كان الغ رض منه ا مواجهة تعلق هلامي ليس له مستقبل أو طريق للنمو، فمن العق ل وأده في مهده. قربتنا هذه اللحظات، بعد عدة أيام من خلاف ما، كان لابد أن نجلس لتصفيته، وللتفاهم في الأسباب التي أدت إليه، والتي كانت ف ي الظاهر تخص العمل، نعيد سرد نقاط الخلاف، في الظاهر أيضا، كأننا نصدق أنها أمور مهمة. تحت هذا يتم ترتيب مش اعرنا وفحص ها وترسيخ ميل كل منا إلى التسامح بشأن ما بدر من الآخر. أما في ه ذه المرة فإنه كان خلافا من أجل إخفاء السر الذي قام بيننا، من أجل خنق ظل بدأ يشق طريقه إلى حياتنا، أفل ت مذ ا دون وع ي وراح يه دد ترتيبات كل منا لحياته. كان يجب محاصرته بخلاف حول العمل حتى

يمكن استعادة طابع علاقة الزمالة مرة أخرى. كان الأمر واضحا لكلينا، لكنا تواطئنا على أن نخفيه ونمحوه باعتباره لحظة نادرة مهددة، لا يجب السماح لها بالتواجد مرة أخرى. تم هذا بتوافق كأننا نفكر في نفس الشيء.

انفصلنا عدة أسابيع. تعمل ماجدة في قاعة الدوريات، وأعمل في قاعة المراجع. تبادلنا الرأي أحيانا بشأن بعض القواعد في فهرسة الدوريات. السمة العامة للكلام بدت موضوعية، بها ظل من البرود، تحتها أجرى كل منا اختبارا سريا لمشاعر الآخر، للتأكد من أننا فهمنا ما حدث على نحو صحيح. يوم الحديث عن المطر كان أمرا عابرا. محونا عن تلك اللحظة نشازها بعملنا منفصلين. من الضروري أن تبقى تلك اللحظة بعيدة عن تيار الحياة العادي حتى لا تشوش عليه، وعليها في نفس الوقت أن تبث إشعاعا شفافا يمنح تلاقينا بعض التشوق، ويهبنا خبرة عدم التورط في تصرفات مشابهة في المرات القادمة. الوعي برغبتنا في تكرار ذلك على نحو أكثر شدة وباستحالته، أعطى لتلك الأيام توترا جميلا، فالوجود على الحدود يمنح المرء وهما بأنه في داخل التجربة، لكنه في نفس الوقت غير معرض لآلامها.

عندما عدنا إلى العمل في البدروم، كان يوم المطر قد نسي. النسيان هنا يعني تحول الحدث إلى أمر عادي، مألوف، لأن إيحاءاته الأخرى كانت موجودة، لكنها لم تعد تثير مشاعر بالخطر، بل أخذت شكلا من أشكال الجاذبية. بالنسبة لي كان ملمس يدها يستدعي كلما نظرت إلى كفها وهي تمسك كوب الشاي. لاحظت أنها فهمت جوهر نظرتي؛

الأمر الذي لم أكن أفهمه أنا نفسي في البداية، فراحت تخفي يدها كلما شعرت باستقرار نظرتي عليها كأنها جزء سري من جسدها. ألقت هذه السرية نوعا من الحيوية على حديثنا، جعلته أكثر عمقا، حتى لو كان مجرد تعليق على أخبار الصحف، به لمسة من السحر الخاص والتلميحات الخفية.

لم أرغب في رؤية تلك المشاعر على وجهها الصحيح، وفسرت انتظاري " لخلاء البدروم من زميلاتنا اللاتي يخرجن أثناء العمل إلى قاعات المكتبة أو لقضاء مشاوير خاصة على أنه " انتظارنا "، كما فعلت في كل مشاعري قبل ذلك، عندما أسقطتها عليها، ورأيت، دون أدنى أثر للشك، أنها تشعر مثلي، واعتبرت الصمت المتوتر، المشحون بصوت سيارات الشارع والذي لا يمنعني من تخيل أنني أسمع تنفسها، دليلا على هذا الانتظار لحديثنا. تهاوت كل تلك التصورات يوم أن حدثتني عن وسوسات الشيطان التي تسمعها تتردد في صوتي. اكتشفت في ذلك اليوم أنني كنت أربي أوهامي، وتأكدت أنني أضفيت عليها الكثير من مشاعري، وأن إحساسي الذي طردته بعيدا، بأنني اخترع عواطف، كان مصيبا.

في ذلك اليوم كان وجهها صافيا، وعيونها البنية واسعة لامعة، ليس بهما أي أثر للعداوة بل اهتمام لم أره بهذا الوضوح منذ فترة طويلة. لن أنكر دهشتي بل تعجبي مما قالته، واستدعى ذلك مخاوف قديمة حفريات الشعور التي تحيط بصورة الشيطان التي انطبعنا عليها. ربما جاء خوفي من أنها ترى صورة الشيطان في وجهي، كان هذا مهينا

بقدر ما كان مخيفا. حاولت أن أستوضح الأمر سائلا إن كانت تراءي مثل الشيطان فقالت وهي تفهم الغضب الذي ظهر على وجهي، بأنها لم تقل ذلك ولم تقصده، فقد قالت بالضبط إنها تسمع وسوسات الشيطان تتردد في صوتي أحيانا، وشددت على نطقها لكلمة " أحيانا ".

بعد فترة من الصمت، سألتني عن دهشتي، مع أنها قالت لي ذلك من قبل. أكدت لها أنني أول مرة أسمع هذا الكلام، نظرت في عيني مباشرة وهي تقول: " بجد ما قلت لكش الكلام ده قبل كده ". وأطالت النظر بثبات، كأنما تحاول أن تتأكد من جدية الأمر. بعد قليل تراجعت عن حيرتها وبدت أكثر تأكدا واستدعت تفاصيل اندهشت لدقتها. كنا نفهرس قسم التاريخ، واختلفنا حول تصنيف كتاب عن السحر وأثره في الديانات البدائية، يومها دار نقاش كان أساسه المعرفي غائبًا عند كلينا. تذكرت أن ذلك قد حدث. تذكرت فجوات الصمت التي غطت نقاشنا وأثناءها عرفت أننا نتحدث عن أمور لا نعرفها وحاولت أن أجعل الموضوع مهنيا، يدور حول المكان الذي ينبغي وضع الكتاب فيه. هل يدخل تحت تاريخ الحضارة؟ أم ينقل إلى قسم العلوم الاجتماعية ويوضع في العادات والتقاليد الشعبية ؟

بقية المشهد الذي حكته كان غريبا عليّ، أو ربما الطريقة التي روت بها التفاصيل هي التي جعلت الأحداث تأخذ تلك الغرابة التي تدفع المرء إلى الظن بأن ما يروى يخص رؤى عقلية أو أحلام أكثر مما يخص الوقائع. حسب روايتها كنا في مطلع الصيف وكنت أرتدي قميصا أصفر، وعندما أخبرتها بأنني لا أمتلك قمصانا صفراء، قالت

بحدة: " لا يمكن "، كنت على وشك أن أقوم تاركا المكتبة إلا إن صمتها المندهش الذي بدا غموضه مثيرا، ومحببا لي، استبقاني.

بدا لها الأمر غير معقول مثلما بدا لي، كأنني أماطلها أو أحاول تضليلها، وعندما نظرت إليها بجدية وقلت بوضوح لا يدع مجالا للمزاح إنني فعلا لا أملك قمصانا صفراء، وهذه تفصيلة يمكن التحقق منها، استخدمتها لكي أؤكد أنها المرة الأولى التي أسمعها تتحدث عن وسوسات الشيطان. رغم اليقين الذي أبديته إلا إنه أتى بنتيجة عكسية فلهجتي وجدية حديثي لم تزحزح تأكدها، فقد كان لديها هي الأخرى بعض الأدلة المقابلة التي يمكن استخدامها في تعزيز فكرتها، مثل ضعف ذاكرتي وشرودي الذي كانت بارعة في تتبعه، بحكم عملها الدقيق؛ فكم من المرات وجدت كتابا تم تصنيفه بطرق مختلفة وكم مرة سهوت عند ترتيب الفهارس، ورغم كل هذا فإن تشككي فيما حكته كان يقوم على أساس أكثر صلابة، فأنا فعلا لا أملك قمصانا صفراء، ويمكن التحقق من ذلك.

حاولت بعد لحظات من الصمت أن تنزع عن هذه التفصيلة أهميتها بادعائها عدم أهمية ما إذا كانت قد قالت لي ذلك من قبل، لأنه ليس الموضوع الأصلي. كان صدقها واضحا فهي تعرف ما تشعر به جيدا، وتعرف هذا الانطباع على وجه الدقة، وتفكر فيه على الدوام، يشغلها ويشوش عليها تعاونها معي في العمل، ولأننا أصبحنا أصدقاء، كما قالت، فإنها أرادت أن تسوي الموضوع حتى " تصفي قلبها ". أربكني

التعبير الذي استخدمته، " تصفي قلبها " وأطلعني على أشياء أنكرها طوال الوقت.

نبهتني بان هذا ليس خلطا في الألفاظ، بل أمر يخص الرؤية، أنها تقصد ذلك، لأنها ما إن تسمع صوته حتى تراه كطيف ينظر من ورائي، ويبتسم ساخرًا. كانت أول مرة أتعرف على أفكارها الداخلية، وأدركت أنني لم أعرفها أبدا، ذابت كل معارفي السابقة، فهذا الجانب الذي تحتشد فيه الهلاوس الدينية، لم أظن أن له مثل هذه الجذور العميقة. صدقها باد، وتأثير انفعالاتها الخفية جعلني أراها بطريقة مختلفة، وأرى أوهامي تتحطم أمام عيني، والصورة التي وصفتني بها أصابتني برعشة مفاجئة، وتخيلت أن بها مسا من الجنون. ويبدو أنها قرأت هذا الانطباع، فقالت أنها ليست مجنونة، وزادت هذه الملاحظة من خوفي. لم تفلح محاولتي في وقف الحديث عند هذا الحد، والعودة إلى فهرسة مجموعة من الكتب تتوسط المنضدة الممتدة بيننا، فقد بدا أنها لن تترك مهمتها المقدسة، كانت تعمل بقوة داخلية، وإيمان عميق بمهمتها.

ذكرتني باليوم التالي لرأس السنة، عندما كانت " آليس " تتحدث عن احتفالاتهم الدينية، وسألتها عن شرب النبيذ، وفهمت " آليس " أنني أريد أن أحرجها أمام الأستاذ " توحيد "، فأرادت أن تردها لي قائلة أمامهم جميعا: " باين عليك جربته " فاضطررت للقول بصوت خفيض لكنه واضح: " كتير ".

لاحظت ماجدة هذا الوجود الشيطاني منذ أول يوم دخلت فيه المكتبة، لاحظت قلقي في أول يوم، ومغادرتي للبدروم. كانت في البداية خائفة مني، شيء ما في نظرتي أوحى لها بأنني قد أحبسها في البدروم. شعرت في بعض اللحظات بأنني على وشك اغتصابها. قالت ذلك دون خجل. استمر ذلك التوجس في الأسابيع الأولى من العمل. بعد ذلك أدركت أنني طيب، يمكن أن تحفظ أسرارها عندي، لا يعني ذلك اختفاء صوت الشيطان، بل إنه دليل على وجوده. فالشيطان من وجهة نظرها، لا يقف على أبواب الخمارات، بل على أبواب الجوامع، إنه يطارد من يقاومونه، لا من يستسلمون له، وذكرتني بذلك السؤال المباغت الذي سألته لي ذات يوم ونحن نسمع أذان الظهر، " بتصلي؟ " وسردت علي إجابتي بالنص. في ذلك الوقت كانت قد كفت عن مناقشتي في الأمور الدينية بعد ردودي الجافة. تلك المرة كان سؤالها بسيطا، ودودا سمح لي بالتعبير عن نفسي. يومها قلت: " أحيانا ". قلت بشكل غامض: " الجمعة " وابتسمت: "الجمعة إلى الجمعة كفارة فيما بينهما ". هذا الود والتفهم جعلني أسترسل بجدية في الموضوع. قلت إنني أسمع أذان الفجر في عز الليل يوقظني من نومي، وعكس كثير من الناس، لا أعتبر ذلك شيئا سيئا، أجدني وأنا بين النوم واليقظة أدعو الله أن يرفع عني الهم والحزن. وينطلق أذان الظهر ونحن هنا في قلب عملنا. ويلاحقني أذان العصر وأنا عائد بابني من المدرسة، وأذان المغرب أكون في طريقي إلى عملي المسائي، ويأتي أذان العشاء خافتا إلى أذني وأنا أصرف الدواء لفلاحين وناس بسطاء ليس معهم ثمن الدواء، ينظرون بحزن إلى النقود المجعدة التي تخرج من جيوبهم، غير

مدركين شيئا من ألاعيب شركات الأدوية، وعصابات الأطباء والصيادلة. في كل مرة أسمع فيها الأذان، ربما بأثر عادة قديمة أجد شفتي تلهج بالدعاء، يواجهني وجه بائس لامرأة ريفية تشتري الدواء، " تخيلي " كل يوم، آلاف الأيام يرتفع الأذان، ويملأ الأثير الذي نعيش فيه بالتسبيحات، ومع ذلك لا يشفع لنا هذا الأثير الذي يغص بالتقوى ولا يحمينا من الفساد.

قالت إنها في هذا اليوم بالتحديد تركت المكان لأنها شعرت بالخطوط غير المرئية لإغوائه تتحرك حولها. خافت فعلا في هذا اليوم، من الصمت الذي أعقب الكلمات.

عددت كثيرا من التفاصيل الصغيرة أثناء حديثي عن أخي، وكشفت عن أن طريقتي في معالجة موضوع أخي اتسمت بالأنانية، مواقف صغيرة تيقنت فيها أن الشيطان يهمس في حديثي، دقيقة لا تلحظ، تعليق ساخر، أو جملة وحيدة عابرة؛ غضبي الذي لا مبرر له أحيانا، مثلما حدث في ذلك اليوم الذي كانوا يتحدثون فيه عما فعله الله باليهود بسبب كفرهم وطغيانهم، ذكرتني بملاحظة عابرة قلتها وأنا أقف هناك بجوار صفوف الكتب التي وصلت حديثا، عن أنهم يفعلون بنا الآن ما فعل الله بهم، ثم تشبيهي بالأمس لجداول التصنيف وقوائم رءوس الموضوعات بالقرآن. حاولت أن أوضح لها الأمر قائلا بأنني لم أفعل ذلك وأن ما أردت قوله هو أننا لا يجب أن نتعامل مع هذه الأدوات على أنها مقدسات يجب أن نفكر، وأن ما وضعه الخواجات ليناسب بهم ربما لا يناسبنا، من جهة أخرى هذه أدوات لإرشادنا لكيفية التعامل مع الكتب.

الأساس هو الكتب، وقدرتنا على تحليل موضوعاتها وهذه الأدوات م ا هي إلا مساعدات في العمل، مرشد. لكنها لم تكن تسمع، وبدا لـ ي أن حديثها قد أخافها مثلما أخافني.

استرسالي في الحديث عن خطط التصنيف كان محاولة لإيقاف هذه المخاوف لكي نناقش عملنا، ربما نعود من تلك الحفرة التي وضـ عتنا فيها أوهامها الشخصية.

كان المدهش بالنسبة لي، هو متابعتها لمشاعري، وسجلها المصنف (الأرشيف) المذهل الدقة الذي أعدته لمخاوفه ا، ولبداي ة اكتشـ افها لطبيعة مشاعرها، وللمواقف الدقيقة لصوت الشيطان وهي تراه يهمس في صوتي، كانت دهشتي مليئة بالإعجاب والخوف من قدرتها الذهنية على التقاط تلك التفصيلات وتصنيفها.

عندما أستعيد ذلك اليوم في ذهني يراودني يقين، لا أعرف كيف أتخلص منه، بأن كل حركة من حركات جسدها: الاحمـ رار الغريـ ب لخدودها، وشفتاها العريضتان اللتان لم يلمسهما الروج وتلقائية حركاتها وهي تميل تجاهي لكي تهمس لي بأمر ترى أنه يجب أن يقال بصـ وت خافت، توترها المكتوم الذي تحول إلى تمسيد لكفيها وشكوى عابرة من برودة الجو وفترات الصمت القصيرة التي عرفت أنها كانت طريقتها السرية للإنصات لصوت المطر على بلاط مدخل المكتبة، كل ذلك كان جزءا من حديث يشكل فيه الكلام جزأه الظاهر.

* * *

لن يستطع أحد في دار الكتب نسيان اليوم الذي عبرت فيه " ماجدة " باب المكتبة بدون الحجاب. الوجه مستدير أبيض، والشعر طويل ملموم " بتوكة " من المطاط، ثقيل لونه أسود فاحم، يعطي الانطباع بأنه ملموم على عجل، ورغم ذلك فهو في أكثر أشكاله جمالا. الوجه مرهق، جاد، حاد الملامح وقف حائلا أمام سؤالها عما فعلته بنفسها. كان شخصا غيرها، كما قالوا، هو الذي دخل دار الكتب في ذلك اليوم. النظرة المتمهلة التي ظهر فيها تشوش موظف الأمن وهو يحاول أن يتعرف عليها ماسكا ببيده القلم الجاف دون أن يمد ده إليها لتوقيع بالحضور هي التي أيقظتها وعرفتها مقدار الصدمة التي أحدثتها، لكنها ألقت عليه تحية الصباح وهي تكتب اسمها بوضوح في مكان التوقيع مؤكدة حضورها، متجاهلة التعجب الذي حاول قدر طاقته أن يخفيه واتجهت مباشرة إلى البدروم.

لحسن حظها لم يكن قد جاء مبكرا غير " نادية " التي أخذت هي الأخرى ثواني حتى تعرف أن " ماجدة " جاءت إلى العمل بدون نفسها كما قالت. وجدت نفسها تقوم دون تفكير وتأخذها في حضنها. ارتمت " ماجدة " دون مقاومة بين يدي زميلتها. قالت نادية إنها أرادت أن تخفيها عن الناس، فقد شعرت وكأنها دخلت البدروم عارية.

في ذلك اليوم وصلت إلى عملي متأخرا عدة دقائق، لم يكن الخبر قد انتشر بعد. دخلت البدروم متعجلا. لم أستوعب ما أرى، خيل إليّ أنني في أحد أحلامي. فقد رأيت طيفا من صور علياء التي أجرى عليها الزمن تغييراته. حاولت أن أستحضر يقظتي وتوقيعي بالحضور،

كي ينقذني من التشوش. تلك الوقائع الوظيفية التي نفذتها منذ عدة لحظات هشة خيالية في مواجهة المشهد الحلمي الذي رأيت فيه " ماجدة " تريح رأسها على منضدة وشعرها مفرود حولها. إشارة " ناديا " أن أبتعد وأغلق الباب، هي التي فصلتني عن الحلم. كررت إشارتها عدة مرات حتى فهمت ما تعني فاستدرت كالمنوم.

أثناء صعودي درج السلم الواسع إلى الطابق الثاني كنت أستعيد نفسي على مهل. لم يكن الأمر سهلا فقد شاهدت أوهامي مجسدة والتشابه بين " ماجدة " و" علياء " كان حقيقة أنكرتها طول الوقت. كنت غير قادر على انتزاع نفسي كلية من إحساس ثقيل ومرعب بأنني فقدت السيطرة على خيالي. فقد رأيت هذا المشهد قبل ذلك، وأذكر جيدا بشأن فهرسة كتاب عن البترول. كانت " علياء " تمسك الكتاب ووجهها للحائط، تبدو يائسة غير قادرة على تحديد الكيفية التي يمكن أن تصنيف كتب بها أكثر من موضوع. اندهشت من وجوده في البدروم، وانشغالها بالتصنيف، وسألتها لماذا تفكرين على هذا النحو؟ ردت غاضبة: " ألا تفهم؟ " لكي أتخلص من رغبتي في أن أموء أو أركض عارية، إنها أداة فقط لكي أمنع نفسي من الحركة.

استعادة الحوار بهذا الوضوح تأكيد على أنني رأيت المشهد قبل ذلك؛ فلا يمكن أن يكون قد ألف نفسه في ذهني على الفور أثناء صعودي السلم، ثم إن وجه " ماجدة " الذي لمحته لثانية، وهي تستدير

الفهم، مستسلما لتشوش أربك النظام الذي يستقبل به المـ رء الأشـ ياء والانطباعات والأحداث اليومية. كنت في لحظة استثنائية، وبـ دا لـ ي خلف كل ذلك حس بالفرح بهذا الاهتزاز الذي أحدثته " ماجدة " في نظام الحوادث. فكرت في أن الحياة على هذا النحو ستكون أفضل لو قدر لها أن تسكن تلك المنطقة من عدم اليقين.

كل شيء كان عاديا لمدة ساعة، حتى انتشر الخبر في أرجـ اء دار الكتب. عرفنا أن " نادية " أغلقت البدروم ولم تسمح لأحـ د بالـ دخول، وكما حكت لي فقد أخذت وقتا طويلا حتى تقنع "ماجدة " بالعودة إلـ ى البيت. خرجت من الباب وهي تسندها تحاول إخفاءها. كـ ان موظـ ف الأمن قد أوقف سيارة أجرة أمام الباب بالضبط. رافقت " ماجدة " إلـ ى بيتها وعادت مرهقة من المشوار على وشك البكاء. قالت إنها لم تر في حياتها شخصا حزينا بهذا الشكل وهي تندس فـ ي فراشـ ها بملابـ س الخروج وتشد الأغطية على جسدها ترتعش كأننا في عز الشتاء.

تعددت التأويلات، سمعت بأذني من يقول إنها مجنونة ومتكبـ رة، " فاكرة نفسها من عالم تاني ". تمت تصفية بعض الحسابات، وخرجـ ت المشاعر المدفونة خلف بسمات الزمالة وتحيـ ات الصـ باح والطلبـ ات الودودة. عوقبت " ماجدة " خلال تلك الساعات على شيء لا يخصـ ها، على طريقتها المتعالية وتجنبها للحديث مع الكثير من العاملين. عوقبت على عدم مراعاتها للتقاليد والأعراف الوظيفية، ونالـ ت الكثيـ ر مـ ن السخرية على تشدقها بالآيات والأحاديث النبوية. دفعت ثمن أمـ ور لا تخصها. تعرفت على تصور الآخرين للمرء الذي لا يظهـ ر إلا فـ ي

غيابه أو إذا حدثت له كارثة. كل تلك التأويلات وتصرفية الحساب والسخرية لم تكن قادرة على إطفاء دهشة دار الكتب، كانت محاولات لامتصاص الدهشة دون أن يعثر أحد على تفسير معقول لما حدث.

حصلت "ماجدة" على أسبوع أجازة، وتدريجيا تلاشت الدهشة وتحولت إلى أحاديث أكثر طبيعية لكنها لم تخل من الافتراء واختلاق الشائعات مثل أن "ماجدة" متزوجة زواجا عرفيا أو أنها تقيم علاقات سرية. لم تدخل "نادية" في حوار مع أحد، وتركتهم يقولون ما يريدون أحيانا ألاحظ دهشتها من أنني لا أتحدث معها عما حدث، ومن جانب آخر كانت تبدو مستريحة لعدم الخوض في الموضوع.

ذات يوم أمشيري تصطفق فيه نوافذ الدار بصوت مسموع، أخبرني موظف الأمن عندما رآني أوقع بالحضور بأن الأستاذ "توحيد" يريد أن أقابله في مكتبة بمجرد حضوري. وقفت لحظات مندهشا من هذا الطلب العاجل. صعدت السلم في حالة من الحيرة. فكرت في الأخطاء التي يمكن أن تكون قد أفلتت مني لكني لم أتبين ما يمكن أن يكون خطأ. حاولت أن أهدئ نفسي بالتفكير في رغبة الأستاذ "توحيد" أن يذكرنا من حين لآخر بأنه المدير.

يحتل مكتبه ركنا في مواجهة قاعة المراجع، تم تجهيزه بطريقة أنيقة. جدران المكتب زجاج خالص، من خلاله يمكن أن يشاهد كل ما يحدث في القاعة، وفي ممرات المكتبة. في مواجهة المدخل مكتب

أركان المكتب كراسي من الجلد موزعة بنسب محددة وتلائم لون موكيت الأرضية. كان يرتدي بدلة كحلية اللون، يحيطه حسن بالفخامة. لأول مرة أشعر بأنه مدير. المكتب جزء من هذا الحس، بمجرد دخولي أشار إلى كرسي أمام مكتبه مباشرة. ظل بعض الوقت ينظر في ورقة وهو متكئ بذراعه على سطح المكتب. بدا لي أن صمته موجه ضدي. كنت قد تعودت ذلك منه وأرجعته إلى تقاربي مع "ماجدة" في الأشهر الأخيرة. قال وهو يشير إلى ورقة مفرودة أمامه:

" أنت عارف إيه اللي في الورقة دي؟ "

لم يكن ينتظر إجابة، كان ينظر إلى راغبا في خلق مساحة من الصمت:

" شكوى ضدك "

فكرة مرة أخرى في إهمالي في العمل، وبقيت على صمتي.

قال:

" زميلة تقول إنك تحرشت بها جنسيا "

تأخذ المواقف الغريبة بضع دقائق حتى تتضح، وتعيد فك شفرتها وإنتاج محتواها باللغة التي يفهمها العقل. جاء إلى خاطري يوم المطر، والأحاديث الودية الحميمة بيني وبين "ماجدة". كل شيء جاء؛ ملمس كفها وهي تطلب مني أن أخفي سر خوفها من المطر، وعندما سألني

الأستاذ توحيد إن كنت أعرف من قدمت الشكوى، كان ذلك زائدا عن الموضوع. سمعته يقول:

" تحب تقرا ؟ "

أومأت بالموافقة ومددت يدي. سمعنا شبابيك المبنى الزجاجية تهتز، وانتشرت في الجو رائحة تراب، كانت الورقة مكتوبة بالكمبيوتر، تحكي عن أنني تحرشت جنسيا بها، وانتهزت فرصة غياب زملائي عن مكان العمل وسألتها عن تفاصيل حياتها الخاصة وعن علاقتها بخطيبها السابق، وهل وصل الأمر معه إلى علاقة جنسية، ثم أمسكت يدها وقبلتها، تركتني أفعل ذلك لأنها كانت خائفة مني.

السؤال الذي وجهته للأستاذ توحيد حول الشخص الذي قدم هذه الشكوى كان واضحا بالنسبة له على الرغم من غموض صياغته، فقد أجاب بوضوح:

" أبوها "

تركت الورقة على المكتب ووجدت نفسي أقوم.

سمعته يقول قبل أن أصل إلى الباب:

" لازم نعمل تحقيق "

لم أفهم الأمر برمته. كثافة الإحساس بالهمود تتراكم دون أمل في تخطيها. كانت " ماجدة " غير موجودة من يوم دخولها دار الكتب بدون حجاب. الأمر كله بلا معنى. دخلت قاعة المراجع وبدأت عملا لم

أستطع التركيز فيه، بسبب خوف راح يطوف بخيالي، مصحوبا بتعجب لم أجد له حلا. كيف استطاعت أن تحكي تفاصيل ما دار بيننا بشكل سري؟ أي غواية دفعتها لكي تبوح بما حدث بيننا بشكل سري؟

بعد قليل عرف المبنى كله الحكاية. حاول كثير من الزملاء الاستفسار عن صحة ما سمعوه وأبدوا دهشتهم وأكدوا على أنهم يثقون في أن الشكوى كيدية. لا أعرف كيف وصلت الحكاية إلى "سهام". في اليوم التالي عندما دخلت الشقة في الظهيرة، رأيتها تنتظر في الصالة، وهي ترتدي ملابس الخروج وحقيبة يدها بجوارها كأنها ضيفة. البيت بارد، ليس به أثر لرائحة الطعام، وجهها عابس، متحفز. طلبت مني، وهي تحاول أن تكون هادئة، تفسيرا. أخبرتني بأنها تحملت بما فيه الكفاية، لكنها منذ الآن – تقولها صراحة – لن تتحمل هذه الحياة. كنت أعرف استحالة الوصول إلى تفاهم معها، فما يمكن أن أقوله سوف يفسر بطريقة خاطئة، أو يفهم على خلفيات لا أقصدها. قلت إنها حرة أن تتحمل أم لا. يبدو أنها كانت تعرف إجابتي مقدما، وقررت أن تتوقف عن تقبل الإهانة المضمرة في أحاديثي، عندما أخبرها دائما بأنني لا أريد هذه الحياة أيضا إذا كانت لا تريدها.

في كثير من المرات تقبلت حديثي حول أن أي شكل آخر من أشكال الحياة سيكون أفضل مما نعيش، وتعود إلى خيالي تلك الفترة البعيدة التي توقفت فيها عن التدريب على قيادة السيارات وتخيلت عن فكرة شراء سيارة أجرة ووافقت على الزواج من "سهام" عندما رشحتها أمي. كان أبوها يعمل في المحافظة، وكانت قد استلمت عملها

كمدرسة تدبير منزلي، شكلها مقبول؛ سمراء ومرحة، ومنيت نفسي بحياة جديدة، لكن كل ذلك انطفأ بعد الشهور الأولى من الزواج، ففي أول لقاء جسدي معها، عادت علياء تطل عليّ، فسحب ذلك عنها روحها الخاصة.

لم تتقبل كلمة واحدة من كلامي، وظهر غضبها وهي تعيد طلب تفسير لما حدث، بانت الشراسة المختبئة تحت جلد الحياة؛ الشراسة التي تدافع بها النساء عن البيوت. أخذ وجهها يزداد شحوبا، وهي تتهمني بالسرمحة. قالت إنها تشعر بذلك طول الوقت، لكنها تجاهلته، أما عندما تصل الأمور إلى التحرش بزميلة كالمراهق، فهذا ما لن تقبله. طلبت منها أن تهدأ وسوف نعيد الحديث في وقت آخر تكون فيه هادئة وقد وصلت إلى فهم ما تريده. لم تكن تلك الطريقة مجدية واندهشت من أنها لم تكن تريد شيئا بالتحديد. لم يكن هناك غير الغضب. آن الأوان أن تتفجر في وجهي ثماني سنوات من الصمت، والإهمال والمعاملة الرسمية، وتحرك تيار من المشاعر الصامتة كي يأخذ صوتا، حتى لو كان غضبا أو كراهية، فقد كان ذلك أفضل من الحياة التي عشناها.

قضيت الأيام التالية مذهولا، أفكاري عائمة تذكرني بحركة رواد الفضاء في سفنهم. حالة من الطفو لا يستطيع الإنسان أن يتحكم في حركته. كنت منزوع الثقل، وبدا لي أنني لم أعش أبدا، وكان هذا مثيرا للحزن، وبدأت أفهم أن تشبثي بعلياء هو تشبث بإمكانية مفقودة للحياة. بدت لي الآن مجرد إمكانية، لم تكن تجربة ثرية كما ظننت، فقد

خضتها تحت تأثير قوى أجهلها، وعندما بدأت أتعرف عليها كان الزمن قد تحرك وفقدتها للأبد.

استغلت " سهام " هذه الأحداث كي تبقي في بيت أهلها كما تشاء. أعود إلى البيت فلا أجدها، ولا أعرف متى ستعود، عندما تتصل بي كي أذهب لاصطحابها في أوقات الليل المتأخرة، فإن مشوار الرجوع يصبح نكدا مكثفا. تذكرني بما حدث مرة أخرى وأخرى وأخرى، أي تفصيلة في الشوارع الخالية في منتصف الليل حتى لو كانت نسمة الهواء تعيد بعث الموضوع، غير مدركة أنها تستخدم نفس الألفاظ تقريبا. يتجدد غضبها كل يوم في صورته القديمة، كأنها لن تفارق هذه اللحظة أبدا، حتى خطر لي أنها تتلذذ به هذا، كأنه الوجدت أخيرا موضوعا تصب فيه طاقة غضبها من الحياة التي نعيشها.

أصبح من عادتي أن أجري اتصالين قبل انتهاء عملي في الصيدلية في منتصف الليل. اتصال بالبيت واتصال ببيت أهلها، أسألها إن كانت تريد العودة. في ظروف أخرى كان يمكن لهذا السلوك أن يشكل ضغط عليّ، لكني كنت أؤدي كل شيء باستسلام. مركز الألم غائر، بعيد كأنه غير مؤلم، ذهول، نوع من شلل القدرة على فهم ما يحوطني.

ذات يوم طلعت " نادية " إلى قاعة المراجع وجلست بجواري. أخبرتني بأنها تريد أن تسوي أمرا. تراني في حالة غير طبيعية وتريد مساعدتي. تريد أن تفهمني ما حدث لعله يرفع قليلا طيف الإهانة. قالت إن " ماجدة " مظلومة. أبوها هو الذي قدم الشكوى. كان قد وصل به العنف إلى الجنون، ولقد منعته " ماجدة " من التعرض لي. كل شيء

تفجر بطريقة غير متوقعة. كانت العائلة مجتمعة وقالت " ماجدة " على سبيل المزاح بأنها تريد أن تخلع الحجاب. المشاحنات المستمرة حولت هذا المزاح العابر إلى أمر جدي، بل رأى فيه أبوها إهانة وانفلاتا لا يتحمله. كانت تمزح فهي غير قادرة فعلا على ذلك، وازدادت النار اشتعالا بوجود عمها الذي نظر إلى أخيه الكبير بطريقة بها بعض السخرية. تقول " نادية " لولا وجود هذا العم لما وصلت الأمور لهذا الحد. انفجر غضب أبيها، غاظتها هذه التبعية، أرادت أن تحول غيظه إلى أمر حقيقي، كبر الموضوع في رأسها، ورأت أنه وسيلة للنيل منه. قالت " نادية " متعجبة إنها عائلة غريبة. الأب تعب من جنون ابنته، من تركها للجامعة دون سبب معقول، ورفضها الخطاب وكأنها لا تنوي الزواج، وسفرها بدون إذنه. كانت هذه مناسبة لتصفية الحسابات لانتزاع الأمر من جذوره. لأول مرة يضربها. ضربها بجنون. بخوف من أن تفلت، كما قالت " ماجدة " نفسها. وهي راحت تفلت منه وتحطم الأواني والتحف الخزفية. حطمت كل ما وجدته في طريقها. أمسكوها في النهاية وحبسوها في غرفتها. تركوها يومين، ويبدو أنها حاولت أن تستخدم كل ذلك لكي تفعل ما تريده. بدت في اليوم الثالث هادئة راغبة في الإجابة عن كل الأسئلة. فقد خمنوا أن هناك أمرا غير طبيعي فيما يحدث لها، وهي التقطت هذا وراحت تغذيه، راحت تحكي لهم عن علاقتها بك وقالت إنها تقابلك سرا، وإنها تفكر في الزواج منك، حتى لو كان زواجا عرفيا. كل ذلك كانت تفعله بدقة، وجدية وكأنه حقيقة، وهي تضمر شيئا واحد أن تنفذ فكرتها؛ أن تذهب إلى العمل بدون الحجاب ولو ليوم واحد.

لم تخلصني هذه الحكاية من دهشتي، بل أشعلتها، ورغم إدراكي لما في هذه الحكاية من حقائق، غير إنها كانت تغص بالتأويل. تأويل " نادية " لما حدث، كانت تفعله بغرض أن تهدئني، وتبرر تصرفات " ماجدة "، ولذلك فإن تلك الحكاية، ساهمت في هذا العجز عن الفهم، بل أكدت لي أنه من المستحيل فهم شيء على الأقل مما يخص ماجدة. تذكرت أنه في كل مرة أصل إلى تكوين انطباع متسق عنها، يأتي حدث صغير، ويحطم التصور، وأشرع في تكوين صورة أخرى. تابعت بسرعة تلك الصور التي تحولت إليها " ماجدة " في خيالي خلال عام واحد، صورتها في أول يوم جاءت لتتسلم عملها، ثم اليوم الذي حكت فيه عن خوفها من المطر، ثم يوم أن طلبت أن أحكي لها مرة أخرى حكاية البيادة، وطلبت، بشرط عدم تقديم أي تفسير، صورة لأخي، ثم يوم وسوسات الشيطان، ويوم دخولها دار الكتب غير محجبة. في كل مرة جانب جديد، هذه الصور اللانهائية التي تمتلكها ماجدة لن تمكنني من معرفتها أبدا.

كانت تلك الأيام حافلة بالأحاديث في دار الكتب، مجالا خصبا لخلق تصورات عما كان يحدث في البدروم. الحكاية مثيرة والعمل في مكتبة يعني التفرغ للتخيل. خمنت ما دار حولي من أقاويل لم يتم مواجهتي بها أبدا. وصلتني قصص خيالية عن علاقة سرية، عن يوم كان فيه باب البدروم مغلقا ثم خرجت ماجدة وهي في حالة غير طبيعية. كان كل ذلك مجرد تفريغ عن الأفكار المكنونة؛ مجرد عبث بريء، لأنه عندما وصلت الأمور إلى الجد وجدت ما يأخذ بيدي.

أنقذني من عقوبة إدارية – كان يمكن أن تتحول إلى وصمة أخلاقية – أمر لم أعمل حسابه. نوع من المرونة وتحجيم الذات، كان جزءا من إحباط أكثر منه استقامة أخلاقية. في المكتبة العامة وأثناء استقبال القراء كما في كثير من الدوائر الحكومية نقوم بأعمالنا وسط مناخ من المشاعر الشخصية. الحياة في مدينة صغيرة مخنوقة وصنوف الغزل المستتر تتم برقة وبحساب؛ إنها انفلات الرغبة الهلامية المكتومة داخل بيوتنا، صهد متبق ناتج من إحباط وثقل الهموم اليومية. الرغبة في النزوح إلى مكان آخر، منطقة شعورية أخرى، يسرى تحت جلد الحياة رغبة حقيقة غير مدركة كضباب الصباح تبث نوعا من الإثارة في الجو الرتيب، هناك تسامح يتم داخل الحكي وداخل التلميحات الجنسية والغزل المستتر، غزل نراه ونتجاهله، بشكل متعمد لأنه طبيعي مثل الحديث، لا حل له غير التجاهل، قلائل لا يدركون هذه القاعة، ويشقون الطريق لتعميق غزلهم، ربما هم أكثر جرأة منا، يشقون طرقهم إلى جعل المكان الخيالي مكانا للجسد، يمدون الغزل على استقامته لكنهم يفعلون ذلك في الظلام، الغريب أنهم ينكشفون لأنهم يكفون نهائيا عن الغزل أمامنا. كل ذلك يحدث، مرئيا لنا جميعا، لكن تواطئنا معا يجعله، طول الوقت، غير مرئي.

بسبب هذا الحس السري تم إنقاذي من رغبة الأستاذ توحيد في توقيع عقاب بالخصم ونقلي إلى مكتبة في أقصى مكان بالمحافظة، فقد تمت معارضة الشكوى من معظم الزميلات. وجدت أصواتا تدافع عن استقامتي، وصورتي المثالية التي لم تكن غير وهم سطحي حافظت

عليه بسبب كآبتي. لم يكن لي يد في الأمر، هذه الشكوى الخالية م ن الأساس استفزتهم، ربما هو خوف على هذا الغط اء الش فاف ال ذي حافظنا عليه، كانوا يدافعون عن تلك الحياة المستترة، وأدركت أنه ل و كان شخصا آخر أكثر نجاحا هو من قدمت فيه الشكوى حتى لو كانت كيدية، فإنهم كانوا سيتركونه يغرق، لأنه فقط أقل مرونة.

ويبدو أن ذلك كان مؤثرًا لأنني عرفت أن ماجدة سحبت الش كوى بعد استدعائها لبداية التحقيق، وقالت إنها لم تكتب هذا الكلام ولا تعرف من قدمه، واكتفى الأستاذ توحيد بنقلي إلى مكتبة فرعية للطفل بج وار الحديقة العامة.

• • •

البيت

أحيانا أسمع صوت " حسام " يسألني: ماذا فعلت حتى تكرهني؟ الصوت ضعيف خافت، كأنه بلا صوت. فكرة بلا جسد. أشم أحيانا رائحة بحر، وأحيانا تحل في خيالي أجواء مطعم فول وطعمية في حارة من حواري بور سعيد. أو رائحة الطمي في منطقة مهجورة يتكاثر فيها البوص خارج المنصورة. تتراءى لي الطرق الريفية حول المدن. ظننت أنه يرتبط بتلك الأماكن، لكن عندما يتكلم على خلفية من مناظر لحواري بغداد، أو يسير فوق جسر قديم في الموصل، أعرف أنها أوهامي وأن خيالي يحن إلى تلك الطرق.

كانت خواطر طارئة، أشياء لا تكاد تحس في مجري الوعي. نقاط ضعيفة نابضة من الألم، ما تلبث أن تتطفئ دون أن أدركها، أو في حالة الانتباه أشعر بها تهوم على حواف الوعي. نفذت تلك الصور إلى مقدمة الوعي ذات ليلة رأيت فيها بيادة تشبه بيادة " حسام " في قدم شاب يعمل في محل بيع بواقي الأحذية الذي افتتح بجوار الصديلية. كان طويل القامة، نحيلا، يقف على باب المحل مرتكزا على ساق ويستند بالأخرى على الحائط في مساحة خالية بين المحل والصديلية. يدخن شاردا. جاءت " أمل " التي تعمل معي في الصديلية ووقفت بجواري. عندما سألتها عن ذلك الشاب، ابتسمت قائلة:

" مين سامح ؟ "

ظهور البيادة أمامي مرة أخرى أمر لا يمكن احتماله بسهولة. قالت " أمل " وقد لاحظت، ربما، الشرود الذي تابعت به حديثها، إنه يعمل

هنا منذ أسبوع وإنه يشرب مخدرات. كان طالبا في كلية الهندسة، لكنه فشل، " اتلم على حبة عيال صيع "، طرده أبوه من البيت، " اتلطم " وجاء في النهاية ليعمل هنا ". نظرت " أمل " بدهشة عندما طلبت منها أن تعيد مرة أخرى ما قالته عن ذلك الشاب. لم أنم جيدا في تلك الليلة. سيطرت على أفكار تخص " حسام ". قضيت صباح اليوم التالي في المكتبة أشعر بأن أمرا غير عادي يخترق صلابة قشرة الحياة الراكدة. في المساء، في طريقي للعمل، خيل إليّ أن تلك الهواجس قد ركدت، التوتر الذي أثاره ظهور البيادة تلاشي تحت شكوك ترادفت توهمني أن ما رأيته مجرد " بيادة " عادية، وأن عالم أحذية الجنود متشابه مثل أرديتهم.

لم يكن " سامح " موجودا في محل الأحذية في تلك الليلة. عرفت أنه سافر إلى القاهرة، لينهي بعض أعمال المحل. لم يهدأ قلقي منذ اللحظة التي رأيت فيها البيادة، ولا يفارقني حس بأن " حسام " يعيش على مقربة من هنا. ما ظننت أنه استسلام وتخلص من القلق، كان مجرد إرهاق تحاول النفس فيه أن تخفي توترا موجودا طول الوقت. أكد لي صاحب محل الأحذية الذي كان معلما للرياضيات وزارني في المكتبة العامة عدة مرات، نفس المعلومات التي عرفتها من زميلتي في الصيدلية، لكن من وجهة نظر استندت على تصور عن ضياع هؤلاء الشبان. كان يعرف عائلته. قال إنهم ناس طيبون جدا، والده ناظر مدرسة أفنى حياته في العمل، ومحاولة جعل أبنائه أفضل منه. الأولاد لا يعرفون مصلحتهم. الآن لا يجد هذا الشاب مكانا ينام فيه. يقضي

بضع ليال عند خالته، وأحيانا ينام في شقّة أحد أصحابه. قال إنه قـ ام بتشغيله وفاء لأبيه. أسر إلى أنه يخاف منه. يخاف من صمته. أحيانـ ا يحاول أن يجرجره في الكلام لكن " سامح " يرد بكلمـ ات قليلـ ة. مـ ا يحزن صاحب محل الأحذية أن الولد كان متفوقا في دراسته، لكنه كره الدراسة ولا ينوي أن يعود إليها مرة أخرى.

بعد عدة أيام رأيته يقف أمام المحل وأنا أغلق الصـ يدلية. اقتربـ ت منه وسألته عن البيادة. كانت ملامحه تعطي انطباعا بأنه فـ ي حالـ ة غياب عما حوله. بدا أنه ينظر لي ولا يراني. تطلع إلى البيادة، ورفـ ع عينيه إلى بدهشة لم تلبث أن اختفـ ت بسـ رعة كأنـ ه متعـ ود علـ ى امتصاصها.

قال بهدوء:

" واخدها من واحد صاحبي "

أفقت من اندفاعي. يسأل المرء في الغالب أحد أصدقائه ومعارفـ ه عن ملابسه من أين اشتراها، أما أن يوقف شخصا في الشارع ويسـ أله عن حذائه، فهذا أمر غير طبيعي. لكي أضفي لمسة من الألفـ ة علـ ى حديثي، أخبرته بأنني أعمل في الصيدلية وفي دار الكتـ ب. لـ م يكـ ن الشاب يحتاج إلى ذلك فقد رآني أكثر من مرة أتحـ دث مـ ع صـ احب المحل. سألته عن دراسته. قال:

" لا أدرس "

تجاهلت ما أعرفه وسألته عن نوع الشهادات التي حصل عليها. فقال بنفس اللهجة غير المهتمة:

" كنت في كلية الهندسة "

في اليوم التالي كان حوارنا أكثر صراحة. وقفنا أمام المحل وحكيت له أنني مهتم بالبيادة لأن أخي كان يملك واحدة تشبهها. لاحظت أن هدوءه طبيعي، ليس هدوء المخدرات كما قدرت " أمل "، لاح لي نوع من التسليم بالحياة، وافتقاد أي تصور عن المستقبل. أخبرني بتفاصيل أكثر عن البيادة، فقد أخذها من ابن خالته الذي يظن أنها جزمة شؤم، ما من مرة يلبسها إلا وتحدث له مصيبة، أما هو فقد أحبها فهي بيادة جيدة مريحة في المشي.

تأكد أنها بيادة حسام، بيقين يشبه الحدس، أو التصورات التي يدرك المرء صدقها رغم عدم وجود أدلة. حدثته عن أخي وعن البيادة، وكيف كان يعلقها على الحائط، كيف عثر عليها في بقايا معسكرات الجيش العراقي في الكويت، وتحدثت عن استغرابي من تعلق أخي بها. كان "سامح " ينظر صامتا، وملامحه تكتسي بانتباه، سألني عن أخي وعن السنة التي تخرج فيها، وأدرك مقصدي. قال إنه لا يعرف من أين حصل ابن خالته عليها، ووعد أن يسأله ويخبرني في اليوم التالي.

في ذلك المساء اتصلت " نورا " وقالت إنها عرفت أن حسام يعمل في محل كشري في "بور سعيد "، أحد أصدقائه قابلها في السنترال وهي تدفع فاتورة التليفون، وأخبرها بأنه رآه هناك. يظهر الفرح في

صوتها كأنها رأته، تحديد مكانه في الحياة يعني وجوده. المسافات يمكن قطعها بالسيارات، يمكن الوصول إليه. تتركني مكالمات ذورا هامدا. تخاطب فيّ مسئولية ميتة، وتوجه نظري إلى الداخل باحثًا عن تقصيري وحياتي الفارغة. بسبب توترها لم أستطع أن أخبرها بأنني رأيت البيادة. بعد يومين لم يكن " سامح " قد سأل ابن خالته. قال معتذرا إنه نسي، ولكي يمحو الأثر السيء الذي تركه نسيانه، عرض عليّ أن أصحبه لرؤية ابن خالته.

بعد انتهاء العمل سرنا صامتين في شارع ضيق على ناصيته محل سمك مغلق، ظلامه تفوح منه رائحة الزفارة. من بعيد لاحت مجموعة عمارات حديثة متشابهة التصميم، نوافذها المضاءة بعيدة لامعة. اجتزنا ميدانا واسعا. دخلنا شبكة من الحواري الضيقة، حتى وصلنا إلى بيت قديم له باب من الخشب بضلفتين مازالت عليه مطرقة. تحت السلم وقفت في صفوف كراتين الأحذية البيضاء، وبمجرد صعودنا السلم تحركت بعض الفئران بسرعة وخشونة بجوار الجدران القديمة. فتحت الباب امرأة بيضاء ضخمة الجسد، وقالت بلهجة بين الجد والمزاح:

" إيه اللي حدفك علينا ؟ "

قال سامح بهدوء:

" ازيك يا خالتي "

جلسنا في الصالة. تفحصتني بشكل لم تحاول إخفاءه. سألتني عن عملي، ومكان إقامتي، مندهشة من وجودي مع هؤلاء الشباب. كراسي

الصالة مبطنة بقطيفة جديدة. والبيت منظم جدا، تشعر بالمسافات الدقيقة بين قطع الأثاث. كانت ضلفة النافذة مفتوحة، وهواء بارد يدخل منها، وأحيانا يصلني صوت كركبة في المنور، وصرخات الفئران حادة رفيعة. ظلت تلح في أسئلتها حتى أخبرتها بأنني أبحث عن أخي الذي ترك المدينة منذ عام.

قالت:

" تلاقيه اتلم على عيال صيع "

غاب سامح في المطبخ، أفاقت خالته على صمته، وقالت وهي تقطع كلامها بطريقة مفاجئة:

" يكون الواد بيعمل مصيبة جوه "

اتجهت إلى المطبخ وهي تنادي عليه، وتسأله عما يفعل، وسمعت صوتهما في الداخل، وضحكات خافتة وهو يقول:

" وإيه ياعني يا خالتوا لما أدخن سيجارة هنا ؟ "

" في بيتي ؟ أبدا "

" بحب أشرب سيجارة ومحادش شايفني غير ربنا "

" أنت اتجننت يا ولد":

" ما بقدرش أدخن قدام أبويا، أقدر أدخن قدام ربنا "

عاد سامح يحمل صينية الشاي. قالت وهي تسير خلفه:

" هتدخل جهنم إن شاء الله "

لم يكن ابن خالته موجودا، قال أثناء نزولنا السلم إنه سوف يبحث عنه وسيمر عليّ في المكتبة. في العاشرة من صباح اليوم التالي، رأيت " سامح " يعبر باب قاعة القراءة مشرق الوجه. قال إنه عرف من أين جاءت البيادة، يعرف الشخص الذي باعها لابن خالته. خيرني إن كنت أود أن أراه وأساله بنفسي. ركبنا سيارة أجرة من أمام المكتبة ونزلنا عند جسر السكة الحديد. عبرنا منطقة سوق صاخبة حتى وصلنا إلى المساكن الشعبية شرق الجسر. صعدنا سلالم ضيقة إلى الطابق الأخير. طرق " سامح " الجرس، وهو يتململ في وقفته. لاحظت لأول مرة توتره. فتح الباب شاب طويل القامة أسمر الوجه، يرتدي فانلة بحمالات، ظل واقفا في المدخل ينظر إلينا بانتباه، وهو يعود من نومه، وعندما تعرف على " سامح " تنحى عن الباب. كانت الشقة صغيرة؛ صالة بها كراسي بيضاء من البلاستيك، وغرفة نوم يظهر من داخلها سرير سفري يلمع على ملاءته المتسخة ضوء أصفر، وتنتشر في الجو رائحة بول. جلسنا صامتين أثناء وجوده في الداخل. بعد قليل أصبح المكان محتمل الظلام بسبب ضوء النهار الذي يدخل من شقوق الشيش. في ركن الصالة كانت هناك كومة من كاسيتات السيارات.

عاد الشاب يحمل صينية الشاي، لم يكن الغضب قد فارق ملامحه. حكي سامح بهدوء حكاية البيادة. لاحظت أنه شكل صيغة تخصه، كون حكايته من نتف المعلومات التي سمعها مني عن شاب ترك المدينة لأنه زهق منها، كانت له تصرفات غريبة آثر أن يبتعد حتى لا يسبب

متاعب لأسرته، بحث عنه أخوه في كل مكان، لم يجده، وهو يخاف أن يكون قد حدث له مكروه، وعندما رأى البيادة (رفع سامح بنطلونه قليلا حتى يكشف البيادة للشاب الذي كان يسمع صامتا وأحيانا يرمقني من زاوية عينيه؛ نظراته قصيرة حادة متفحصة) عرف أنه اتخص أخاه، وهو يريد أن يعرف طريقه. سمعت حكايتي تحكى أمامي مصاغة بغرض تبرير بحث غير معقول عن حذاء، أحداث مختلفة بالغ سامح في إظهار حوافها الدرامية حتى يعطي مصداقية لوجوده. بطريقة لا مبالية أخبرنا ذلك الشاب عن أنه أخذها من ولد نحيل أبيض اللون شعره أصفر أكرت، قابله في الحجز منذ ثمانية أشهر، كان ممسوكا في مخدرات. استفسر " سامح " عن طبيعة الجريمة " رد الشاب:

" تعاطي " وأكمل:

" عطاها لي قدام عشر سجاير وشبشب بلاستيك "

قال:

" دي بيادة مستوردة، بتاعة عسكري إسرائيلي، جابها واحد كان بيشتغل في رفح "

سمعته يقول:

" العيال دي فاشلة، فاكرين أنهم لما يتاجروا، تجارات صغيرة، الفلوس هتجري في إيديهم، دي عيال فاشلة ". كرر العبارة مرارا وهو

ينظر تجاه " سامح " الذي لم يكن يهتم بحديثه، وإن بدا عارفا ما يرمي إليه. سألني بشيء من العداوة:

" أخوك إيه اللي حدفه على السكة دي ؟ "

" تعب بعد ما طلع من الجيش، وعذبنا. ندور له على شغل يرفض، نحاول نجوزه يرفض، ما عرفناش هو عاوز إيه؟ "

في فترة الصمت الذي تعمد أن يطيلها حتى نغادر المكان طلبت منه أن يصف لي مرة أخرى ذلك الشخص الذي أعطاه البيادة، قال بخشونة:

" قلت لك، عيل زي صاحبك "

وأشار إلى سامح.

عندما نزلنا إلى الشارع، قال سامح:

" أنت متأكد أنه أخوك "

" اللي وصفه أخويا "

ركبنا سيارة أجرة، سأل " سامح " عما سأفعل، قلت إنني سأستشير محاميا، لأعرفه ظروف حبسه. كانت السيارة تمر في شوارع خالية نسبيا في ذلك الوقت الميت قبل خروج الطلاب والموظفين قبل أن نصل إلى محل الأحذية، قلت بصوت خافت:

" تبيعها؟ "

قال سامح:

" هي إيه ؟ "

" البيادة "

قال دون تفكير:

" خذها "

عندما وصلت إلى عملي في المساء، قالت " أمل " إن لـ ـي أماذ ـه، واختفت وراء حاجز خشبي، وعادت بكيس بلاس تيك. عرف ت أنه ا البيادة، تركها سامح بعد الظهر. أثناء عودتي في الليل، فكرت ب أنني دائما ما أبحث عن أمور تثير القلق، بعد قليل عرفت أن البيادة لو ظلت بعيدا عني، أراها في أقدام الآخرين ستثير قلقا أكبر، وبشكل ما فقد بدا أنني أحاول حبسها. لم يكن في ذهني تصور عما سأفعله بها، تركتها ا بجوار الجزامة في مدخل الشقة، وأخرجتها يوم الجمع ة. كاذ ت قـ د أصبحت حذاء مهلهلا، مغبرا، راح عنها ذلك الوقار الذي أحاطها فـ ي غرفة حسام. تفحصتها أثناء تناول الشاي في البلكونة، وفكرت بشـ يء من الشك في أنها قد تكون ميتة، وشعرت نحوها بنوع من الود والألفة.

في الأيام التالية رافقتني كصورة ذهنية، كسر يفتش عن حله فـ ي صور وأحداث الماضي. رحت أفكر في اليوم الذي أخرجها حسام من حقيبته، ذلك اليوم الإبريلي البعيد. أمسكتها أمي في يدها وقال ت إنها ا مثل الحجر. كان حسام يدخن وهو ينظر إليها صامتا. لا شيء يمكن أن يفض سرها، رحلتها من مصنعها في بلادها. الحروب التـ ي دخلتها ا،

والأقدام التي رافقها، المعسكرات والتدريبات والعلميات الحربية، تذكرت العناية التي أولاها "صول" سريتنا لأحذيتنا في فترة تجنيدي القصيرة. كل يوم، في الطابور، يمر علينا وهو يتأمل أحذيتنا، يراقب عنايتنا بها، ودرجة لمعانها، أحيانا يتلقى أحدنا طابور ذنب بسبب إهمال حذائه، لم يكن هوسا من ذلك الرجل الذي كنا نقول سرا إنه تزوج الجيش، فقد كان يؤدي عمله بتفاني في زمن خال من الحرب، ذلك عمله الأساسي في وقت لا حروب فيه، لكن اهتمام "صول" سريتنا بتلميع الحذاء عرفني على أهمية البيادة في الجيش وتذكرت قوله عن أن الاهتمام بالحذاء هو نفس الاهتمام بالسلاح.

عندما عدت من العمل ذات ليلة خيل إليّ أن البيادة غير موجودة في مكانها. كنت متعبا، فأجلت بحثي عنها حتى الصباح، لكني قمت متأخرًا من النوم فلم أبحث عنها إلا بعد عودتي في الظهيرة. سألت عنها "سهام"، التي ما زالت تسكن حالة النكد من يوم حادثة دار الكتب. قالت إنها لا تعرف لم أصر على الاحتفاظ بتلك الجزمة الشؤم. قلت محاولا التماسك إن هذا أمر يخصني، وسألتها مرة أخرى عن مكانها، قالت إنها وضعتها خارج الباب، وعادت من العمل فلم تجدها، ربما ظنها الزبال من المخلفات فأخذها.

كيف تجرؤ على التصرف في أمر لا يخصها؟ كيف تجرؤ على التفريط في شيء من أشيائي؟ كانت ردودها جارحة، وهي تتحرك في الشقة تنفض الكراسي رغم أنه ليس وقت التنفيض، وأسمعها تحدث نفسها في المطبخ. يبدو أنها كانت تنتظر تلك اللحظة، تنتظر لحظة

عنف مني حتى يتفجر عنفها. راحت تتحدث عن الفشل، قائلة إنني أحملها فشلي، وأحملها، هي، هروبي ورجوعي من العراق، من البلاد التي تمنيت أن أعيش فيها، إن كنت أريد ذلك حقيقة فعلي أن أذهب لأعيش هناك. أما أن أصور نفسي على أنني شهيد فهذا ما لن تقبله، ولا هي مستعدة لتحمله، فذلك يسمم الحياة.

أذهلني هذا الفهم لخواطري التي ظننتها مختفية في الداخل بعيدا عن الأعين. عرفت في هذا الموقف أن الناس مكشوفون من الداخل أكثر مما يظنون. لم يكن العنف الذي تفجر في صمت تلك الظهيرة يخص المعرفة التي قذفتها في وجهي، بل يخص معنى يتخطى نص الكلمات، حسا عدوانيا ورغبة في التشفي والإيذاء. في كل جملة كانت كلمة " سم " موجودة، " لا تسمم حياتنا" ، " كآبتك تسممنا "، " حياتك مسمومة فما ذنبنا ؟ ". كل تلك العبارات منطوقة بطريقة تحاول تجسيد الجانب الشرير في اللفظ. العداء المحبوس دفع مناقشة عادية أن تأخذ تحولا غير متوقع. انتفى تماما من طريقة نطقها أي أثر لحياة مشتركة دامت أكثر من ثمانية أعوام، وبدونا أغرابا بل بشرا في حالة قتال. اس تنفر ذلك العداء طاقة كامنة، بخارا فاسدا ورغبة في التحطيم، كنت أريد أن أوقف هذا الحس الذي نفانا خارج حياتنا المألوفة، وكشف الجانب العدواني في مشاعرنا، الغريب في الأمر أنني كنت أحاول أن أوقف العنف بمزيد من العنف. كوب الشاي فوق طبق من الخزف أمامي، على منضدة صغيرة في الصالة، عندما قذفته إلى الحائط كنت أستعيض عن رغبة خطرة في تحطيم ما حولي. قادني صوته القوي كصوت

الانفجار إلى عنف أكثر شدة، فرحت أضرب قبضتي في الحائط وأنا أقول: " اسكتي "، أكرر الكلمة كأن اللغة لم يعد بها غيرها. كنت خائفا من طاقة العنف التي انفجرت، وفي خلفية بعيدة كان جزء من ذهني يراقب الأصوات الخافتة لتحطم العظام وللآلام التي يسببها، جزء بارد بعيد كان هناك مثل عيون باسمة.

سمعت صرخات " نبيل "، عالية في جوف الانتباه الذي يجتاحني بالألم، صرخات حادة تغص بالرعب، يحدق فيها بعيون مفتوحة، ويمسك بذراع كرسي الصالون ويهزه. رأيتها تتجه إليه، ربما لاحالي لون ثوبها المنزلي لأن انتباهي كان يعود مرة أخرى إلى رنين الألم في قبضتي وذراعي. مازلت أرى عيون " نبيل " أوسع، صرخاته لا تتوقف رغم ميلها عليه تحاول حمله. أفلت منها وظل يصرخ وهو يضرب الأرض بقدميه. كان انتباهي لألم الطفل هو نوع من الحيل النفسية كي أشتت انتباهي عن ألم لا أقدر على تحمله. بعد ثوان تلاشى ما حولي وسقطت في طنين لا يحتمل أشعل ذلك الجزء من جسدي وأوقف أفكاري عنده.

قضيت ذلك المساء في المستشفى. الانشغال بتجبيس ذراعي وفحوصات الأشعة، وتفاصيل غرفة التجبير والإجراءات الطويلة في طرقات المستشفى العام، كان شكلا مختلفا من أشكال التركيز، احتجته كي أنسى تلك الظهيرة. تلاقت نظراتنا مرات أثناء ذلك. كانت تتحرك بسرعة من باب إلى باب، تتابع بقدر من الذهول ما يحدث، وتتمم الإجراءات الإدارية بسرعة، وجهها صاف في شحوبه وحزنه، به ظل

عنف مني حتى يتفجر عنفها. راحت تتحدث عن الفشل، قائلة إنني أحملها فشلي، وأحملها، هي، هروبي ورجوعي من العراق، من البلاد التي تمنيت أن أعيش فيها، إن كنت أريد ذلك حقيقة فعلي أن أذهب لأعيش هناك. أما أن أصور نفسي على أنني شهيد فهذا ما لن تقبله، ولا هي مستعدة لتحمله، فذلك يسمم الحياة.

أذهلني هذا الفهم لخواطري التي ظننتها مختفية في الداخل بعيدا عن الأعين. عرفت في هذا الموقف أن الناس مكشوفون من الداخل أكثر مما يظنون. لم يكن العنف الذي تفجر في صمت تلك الظهيرة يخص المعرفة التي قذفتها في وجهي، بل يخص معنى يتخطى نص الكلمات، حسا عدوانيا ورغبة في التشفي والإيذاء. في كل جملة كانت كلمة " سم " موجودة، " لا تسمم حياتنا" ، " كآبتك تسممنا "، " حياتك مسمومة فما ذنبنا ؟ ". كل تلك العبارات منطوقة بطريقة تحاول تجسيد الجانب الشرير في اللفظ. العداء المحبوس دفع مناقشة عادية أن تأخذ تحولا غير متوقع. انتفى تماما من طريقة نطقها أي أثر لحياة مشتركة دامت أكثر من ثمانية أعوام، وبدونا أغرابا بل بشرا في حالة قتال. اسـتنفر ذلك العداء طاقة كامنة، بخارا فاسدا ورغبة في التحطيم، كنت أريد أن أوقف هذا الحس الذي نفانا خارج حياتنا المألوفة، وكشف الجانب العدواني في مشاعرنا، الغريب في الأمر أنني كنت أحاول أن أوقف العنف بمزيد من العنف. كوب الشاي فوق طبق من الخزف أمامي، على منضدة صغيرة في الصالة، عندما قذفته إلى الحائط كنت أستعيض عن رغبة خطرة في تحطيم ما حولي. قادني صوته القوي كصوت

الانفجار إلى عنف أكثر شدة، فرحت أضرب قبضتي في الحائط وأنا أقول: " اسكتي "، أكرر الكلمة كأن اللغة لم يعد بها غيرها. كنت خائفا من طاقة العنف التي انفجرت، وفي خلفية بعيدة كان جزء من ذهني يراقب الأصوات الخافتة لتحطم العظام وللآلام التي يسببها، جزء بارد بعيد كان هناك مثل عيون باسمة.

سمعت صرخات " نبيل "، عالية في جوف الانتباه الذي يجتاحني بالألم، صرخات حادة تغص بالرعب، يحدق فيذا بعيون مفتوحة، ويمسك بذراع كرسي الصالون ويهزه. رأيتها تتجه إليه، ربما لاحالي لون ثوبها المنزلي لأن انتباهي كان يعود مرة أخرى إلى رنين الألم في قبضتي وذراعي. مازلت أرى عيون " نبيل " أوسع، صرخاته لا تتوقف رغم ميلها عليه تحاول حمله. أفلت منها وظل يصرخ وهو يضرب الأرض بقدميه. كان انتباهي لألم الطفل هو نوع من الحيل النفسية كي أشتت انتباهي عن ألم لا أقدر على تحمله. بعد ثوان تلاشي ما حولي وسقطت في طنين لا يحتمل أشعل ذلك الجزء من جسدي وأوقف أفكاري عنده.

قضيت ذلك المساء في المستشفى. الاشتغال بتجبيس ذراعي وفحوصات الأشعة، وتفاصيل غرفة التجبير والإجراءات الطويلة في طرقات المستشفى العام، كان شكلا مختلفا من أشكال التركيز، احتجته كي أنسى تلك الظهيرة. تلاقت نظراتنا مرات أثناء ذلك. كانت تتحرك بسرعة من باب إلى باب، تتابع بقدر من الذهول ما يحدث، وتتم الإجراءات الإدارية بسرعة، وجهها صاف في شحوبه وحزنه، به ظل

من الرعب. رغبت أن أتبادل معها بضع كلمات. أخذ الألم يتباعد وحل محله ظل خافت من الخوف، فقد رأينا الهاوية التي يمكن أن نقود إليها حياتنا.

في اليوم الأول عادت " سهام " من العمل وقد حصلت على أجازة لمدة يومين، وراحت تقترب مني، تبادلنا أحاديث عابرة دون أن نقترب من تلك الظهيرة، وادعينا أمام أهلنا وجيراننا أنني سقطت على السلم. كل منا بطريقته حاول التراجع. في تلك الأيام أصبحت كل الأشياء في البيت محل رعاية، ترتيب الدواليب وتنظيم الثياب، وتنفيض السجاجيد، وتلميع طقم الصيني، أدت " سهام " تلك الأعمال بدقة وصبر كأنها لا تريد أن تنتهي منها. تبادلنا أحاديث عابرة، عن المدرسة التي سوف يدخلها " نبيل "، وإمكانيات انتقالنا إلى شقة أخرى، أو الانتقال إلى بيتنا لنعيش فيه أفضل من تلك الشقة الصغيرة المخنوقة في منطقة السوق، وغير ذلك من أخبار الجيران، وتفاصيل أيام العمل. لا تسمر تلك الأحاديث طويلا، تتخللها فترات صمت؛ فلم نكن قد تعودنا على ذلك التواصل، ويبدو أن الهوة التي تكشفت لنا في ذلك الصدام جعلتنا ننظر إلى حياتنا بطريقة أخرى.

كانت أجازتي المرضية قد انتهت، ولابد أن أعود إلى العمل لتجديدها. قضيت الليل قلقا، وصحوت مبكرًا. دخلت غرفة نبيل. كان قد استيقظ، يلعب مع حصان من البلاستيك، وهو راقد على السرير. جلست بجواره مفكرا في أنه يشرب هذا الجو الداكن مع الطعام الذي نغذيه به، ويتشكل به فضاء روحه. كنت غير قادر على إيقاف الحس

الداكن الذي يسري خلف الحياة، ولن يخلصه منه اللعب ولا المدرسة. فكرت بحزن فيما نصنعه ورغبت في أن أجلس بجواره أحكي له قصة وأتكلم معه، لكني شعرت بالزيف، وعلى نحو مفاجئ بدا لي أن نظرته تشبه نظرة حسام. لأول مرة أرى هذا التشابه، بينه وبين " حسام "، إن ملامح أبي تسللت عبر المآزق التي تصنعها قوانين الوراثة وجاءت لتسكن ملامح طفلي.

سافرت إلى المنصورة رافضا اصطحاب " نورا " معي، فقد كان حسام قد قبض عليه هناك، وبعد بحث استمر عدة أيام، عرفت أنه رحل إلى سجن " طنطا " ليتم الإفراج عنه من هناك. عن طريق وساطة الدكتور " ملاك " صاحب الصيدلية، استطعت الحصول على زيارة غير رسمية. كان حسام نحيلا، وأطول مما تخيلته، عيناه زائغتان. بعد قليل عرفت أنه لا يريد أن ينظر إلى مباشرة. كنا نجلس على دكة خشبية، مستندة إلى حائط رمادي اللون وضوء النهار يدخل من باب صغير إلى اليمين. بدا لي أنه متعب ومندهش من أن له احدًا في الدنيا، وكنت مندهشا لنفس السبب.

بعد الزيارة بعدة أيام ظلت كلماته الخافتة تتردد في ذهني:

" زهقت، عاوز أخرج "

كلمات بسيطة منطوقة بهمس وحدة

• • •

وقف " حسام " مستندا على الدرابزين عندما فتحت بـ اب الشـ قة. تخطتني " نورا " ودخلت. تحرك شبحها في عتمة الصالة متجهة إلـ ى البوفيه. تطوف في المكان رائحة تراب خافتة حية. تمهـ ل " حسـ ام " وهو يعبر الباب، ولاحظت انه يهمس لنفسه. أحاط بنا صمت خشـ ن. سمعنا أزيز محطات الراديو الذي ضبطته " نورا " على محطة القرآن الكريم. انتشر صوت الترتيل نقيا خافتا في أدق درجاته خفوتا، أرادتـ ه على هذا النحو حتى ينبعث ذلك الحس القديم خلف حديثنا.

قال حسام:

" افتحي الشباك "

قالت وهي تتحرك بسرعة؛ تحاول به أن تخفي فرحتها:

" تعالى افتحه أنت "

فتح " حسام " النافذة. ضوء باهت تخلل فضاء الصالة التي احتفظت بنفس النظام القديم تقريبا: طاقم الأنتريه الأسيوطي الذي دخل حياتنا مع سكننا هذا البيت لأول مرة، وصورة الكعبة المطبوعة على قماش بنـ ي اللون، ودولاب التليفزيون والبوفيه بجوار باب غرفة " الصبيان ". طال ضوء الشمس إطار النافذة الذي تقشر طلاؤه، واندفعت إلى ذلك الفضاء من الضوء، متموجة، ذرات الغبار التي أثارتها حركتنا. كـ ان الـ بلاط نظيفا. ربما ما ترك هذا الانطباع هو أن سجادة الصالة كانت مرفوعة. المكان صامت صمتا متوترا، لولا صوت القرآن الخافت، لخاف المرء من ذلك السكون المتربص. أدركت أن حديث نورا حول زيارتها لبيتنا

والذي كانت تسرده بشكل عابر وبكلمات بسيطة أثناء مكالماتها التليفونية أمرا اكبر من الكلمات، تجربة لم تصورها الألفاظ بدقة. تخيلت كيف تحملت وحدها تلك الأصوات الصامتة والصور التي تتلاشى، وذلك الحس الكئيب بالخلاء. لابد أنها تملك مخزونا من الطاقة، فرغم هدوئها وما تبدو عليه من ضعف أمام قوة زوجها الذي يحجم حياتها، ببخله وتركها تدبر شئون البيت وحدها، لم تفقد روحها المرحة. ربما امتلكت نوعا خاصا من القوة الداخلية الغامضة؛ مسئولية نابعة من عمق كيانها تدفعها للاهتمام بهذا البيت حتى لو كان خلاء؛ كأن أهله يسكنونه. رغم ظروفها الصعبة كانت قادرة – بإصرار غير مفهوم – على هذا الاهتمام، على حفظ حياة تبددت، على إشاعة الأمل، في وقت تنهار فيه الحياة.

في ضوء الشمس بدا حسام ضعيفا، وهو يسألها عن ابنها الكبير. ردت من المطبخ، بأنه يتبعها وهو في الصف الخامس الابتدائي، ماذا سيفعل عندما يصبح في الثانوية العامة. كنا نسمع صوت رنين تقليب أكواب الشاي، كأن الحياة عادت إلى البيت مرة أخرى. ربما أدت حمايتها المتصلة للمكان إلى استعادة " حسام ". لقد احتفظت بكل شيء حيا معدا للاستخدام فكيف لا تطاوعها الحياة، هذا الإصرار لابد أن يجد له صدى حتى لو بدا غير معقول.

تركت أكواب الشاي على منضدة صغيرة، وقالت أنها ستنزل إلى السوق وتعود بسرعة. حاول " حسام " أن يستبقيها، قائلا انه سيأكل أي شيء من الخارج، لكنها أصرت أن تعيد طقوس البيت بالكامل. لحظات

الصمت التي أعقبت نزول " نورا " ثقيلة. صوت القرآن الخافت أصبح حيا الآن. قام ظل البيت وتجسد خفيا ومؤثرا مثل صوت القرآن؛ حس الأخوة، العلاقات القديمة كانت تبحث لها عن مكان داخل الصمت. شعرت بنفس القلق الذي عانيته أثناء زيارتي له في السجن. إدراك صلب بأن علينا أن نتخطى ما اعتدنا عليه، أن نعيد ترتيب علاقتنا، بما يلاءم وضعا جديدا. كان ذلك هو انطباعي، أما صمته، فلم أتعرف عليه إلا بعدما بدأ حديثا طويلا عن أول يوم له في الحجز. عرفت من خلال حديثه كيف تختلف نفس الأشياء، فلم يكن حسه بالبيت، له نفس الثقل الذي شعرت به، كان حسا بالونس، والرغبة المنزلية في السكون والثرثرة. أمور كانت مخالفة للصورة التي كونتها عن أخي. كان يدخن صامتا وهو ينظر إلى ضوء الشمس.

صوت حسام هادئ مسترسل، لا يضغط عليه الكلام، لا يحاول التيقن من الألفاظ. أراد أن يصف لي ما أسماه لحظة " يقظة "، أو لحظة " تبصر "؛ تلك اللحظات التي لا يعرف من يسلط عليها الضوء، من يفعل ذلك، ويستبقي في الذهن لحظات مثل بقع ضوء على قماشة سوداء.

في عرس نورا اخذ زجاجة كوكاكولا واختبأ في غرفة النوم، هاربا من طلبات أبيه ومستمتعا بالعزلة. كانوا قد خزنوا عفش البيت في غرفة النوم حتى يخلوا الصالة والغرفة الأمامية. وضع الزجاجة على ترابيزة السفرة وراح ينظر إليها، اهتزت وانكبت، جرى السائل البني بهدوء في اتجاهات متعددة، لأن الترابيزة لم تكن موضوعة بشكل

مستو، فقد راحت خطوط الكوكاكولا لا تتحرك في اتجاه ميلها، اذ دفع السائل، أخذ مسارات متعددة، واندمجت خطوط رفيعة مع خطوط أخرى، وظلت تتحول في كل لحظة. سكن في مكانه يراقب الخطوط التي شكلت منذ ذلك اليوم علامته الخاصة للجمال. انتابه نفس الإحساس بعد ذلك أمام لحظات صغيرة أخرى لها نفس الطابع. هناك في معسكرات الصحراء، كان يتابع هبوب الرياح الرملية بصبر أدهش زملاءه، بنفس الحدة التي كان يتابع بها حركة فتاة ترقص في إحدى أغاني الفيديو كليب؛ ترقص بجد؛ لا تهز جسدها فقط. في أول صباح له في الحجز فتح عينيه – ربما قبل أن يفتحهما – شعر بضوء باهت يتسرب من نافذة مستطيلة في أعلى الحائط، نصفها الأسفل مغطى بصفيح يهتز مع الريح، لم يكن يعرف كيف ينام الناس وهذا الصوت يملأ المكان بنغمة قلق. كان نائما على جنبه، ينظر إلى ضوء الصباح الأزرق كأنه يراه لأول مرة، يشعر بأن جماله له نفس طابع خطوط الكوكاكولا وهي تسيل على المنضدة، لم يكن قد صحا تماما، عندما رأى أمه تبتسم له، بسمة جميلة، يظن أنها ذكرى أكثر منها حلما، رغم أن وعيه بدأ يتعرف على بقايا حلم يتبدد. بعد قليل عاد كل شيء إلى وضعه، أحداث الليلة الماضية عادت إلى ثقلها، عندما قبض عليه على ناصية احد الشوارع، وهو يعطي كيس بانجو لأحد معارفه، بدأ يفيق ويتعرف على نفسه وعلى المكان، كانت الغرفة مستطيلة كأنها ممر. مجموعات من الشباب نائمة بجوار الجدران الداكنة المدهونة بلون رمادي، السقف عال، وخيوط عنكبوت كثيفة في الأركان مسودة. تعالى شخير من أحد الأركان. بدأ يشعر بآلام في بدنه من اثر الضرب الذي

ناله الليلة الماضية، كأنها صدى ليل مر وترك أصواتا غامضة في جسده. عزلة من الصعب أن يتحملها، هو يعرف نفسه. كان الذهن يتخلص من بقايا المخدر، ويفرز صورا باهتة. بسمة أمه تتوارى ويسكن وجهها حزن وهي تطل من نافذة مفتوحة في المغرب. غطت ستارة متسخة أحداثا لها ضوؤها قبل ذلك. راح الجمال وترك في كيانه يقين بأنه قد أصبح فارغا بعد أن فارقه تلك اللحظة. بدأت الحركة تدب في قسم البوليس، دورية تسلم أخرى، أصوات في باحة القسم طازجة وكأن الحجز غير موجود، كلمات عالية النبرة أحيانا، خليط من الشتائم المرحة وتحيات الصباح، صوت خبطات الأكف على خشب البنادق. في الحجز استيقظ بعض الرجال وبدأ كلام خافت. كان صديقه نائما في الركن ودم ناشف بجانبه أذنه. في سيارة سجن كبيرة، مثل زنزانة معتمة يدخلها ضوء شاحب من نوافذ صغيرة عليها حديد مشبك، تم ترحيله إلى النيابة. لا يعرف الشوارع التي مرت بها السيارة، حاول أن يستعيد صورة المدينة من اللون الأصفر المغبر للعمارات، مروا، على ما يبدو، من شارع تجاري، لأنه سمع ترتيل قرآن يختلط مع صوت أغاني حديثة، رأى نوافذ واسعة خالية من الشيش، برج حديث البناء. الخوف الباهت الذي شعر به تحول إلى برد خفيف. برد شعر بأنه آت من داخله، وليس من الهواء الذي يتسلل من شباك السلك لسيارة الترحيل. أدرك انه لم ينظر أبدا إلى قمم البيوت، كان ينظر دائما إلى المحلات والنوافذ القريبة. وكيل النيابة شاب ضخم الجثة ذو وجه كئيب، في نفس عمره تقريبا، يرتدي نظارات لا تليق على وجهه. عندما جلس على مقعد خشبي لامع مدهون حديثا لم يكن خائفا، كان

يحاول أن يوقف رعشه سرت في جسده وذكرته بنوبات البرد في طفولته، كي لا تظهر في أصابعه؛ رعشة تتحرك في جسده على شكل دوامات من الاهتزازات الكهربية، تأتي من الأعماق السحيقة، المظلمة، التي لا يعرفها. فشلت كل محاولاته في السيطرة عليها، وعندما نظر إلى كفه كان لونه اصفر فاقع الصفار. رد على أسئلة وكيل النيابة، وهو منتبه، لارتعاشه جسده، بدا له أن وكيل النيابة يسأله أسئلة ساذجة كأنه عبء يجب الخلاص منه. كان ينظر إلى الكاتب الذي يردد بلوفر بني أكثر مما ينظر إلى وكيل النيابة. عندما خرج لم يتذكر أقواله في المحضر. نتف صغيرة من كلامه كانت تتردد في فراغ، مختلطة بصور لما حدث بالأمس، تذكر انه حكى لوكيل النيابة أنهم ضربوه في القسم وتذكر وجه الضابط الآن. في طرقة المبنى النيابة، حاول أن يعرف ما قاله لوكيل النيابة. الأمر جدي. كان لا يتذكر الآن التفاصيل القريبة لحواره مع وكيل النيابة، بل وجه الضابط؛ يتذكره بنفس ذلك الهدوء الذي كان يتابع به حركة خطوط سائل الكوكاكولا على ترابيزة السفرة. شمر الضابط كم القميص، وهو ينظر في عيونه، ومال وشمر طيات البنطلون، كأنه ينوي الوضوء. كان من الغريب بالنسبة له أن يتذكر هذه الأحداث بهذا الوضوح ولا يتذكر ما قاله لوكيل النيابة وقد مضى عليه بضع دقائق. ألقى الضابط الساعة على المكتب، لم يعد يذكر حسام غير تلك الأضواء الراقصة المتشظية التي تشبه الألعاب النارية وهي تنفجر في رأسه. كيف جاء وجه الضابط بهذا الوضوح من أين استدعى تلك الملامح الكارهة. أدرك أن الكره يحيطه من كل الجهات، لا أحد يريده. هذا ما استقر في كيانه كشبح من المعاني

الغامضة، شبح يبدو انه كان موجودا طول الوقت، لكنه الآن يرى ملامحه واضحة في بسمة الضابط الباهتة. لا أحد يريده، كل شيء يؤكد تلك الفكرة حتى صوت تنفسه، لم يكن حزينا، كان مستريحا، وشعر بأن رعشته توقفت واندهش من الخفة التي سكنت أعضاءه. لا أحد يريده. ليس مهما لأي مخلوق على وجه الأرض، لن يسأل عنه احد، أو يعرف مكانه بعد ذلك، انه يدخل إلى مكان ينسى فيه الناس.

كانت لحظة ضوء دفعته أحيانا أن يفكر فيما حدث، بهدوء وبلا ضغائن، لم يكن ذنب احد، كان ذنبا لقوى لا يمكن فهمها. أحيانا يفكر في أبيه أثناء بناء البيت وبدأ ينظر بحزن إلى حياته التي انقضت في شقاء، لم يهنأ يوما واحدا. ما جعل تلك المشاعر خالية من الألم أن ما حدث لا يمكن استعادته، ولا تغييره، وفكر في أمه وأدرك أنها ماتت.

وشعر بالراحة. الذنب لم يكن موجودا كان فرحا من أجلها، فقد كان ذلك أفضل بالنسبة لها. تحدث عنها بصوت خافت، لم يكن مضطرا لإبداء أي نوع من العواطف الزائفة. كان ذلك أفضل لها فمن منا كان سيتحملها لو مرضت أو وصلت إلى شيخوخة بلا رعاية، سوف يكون ذلك أقسى أمر تواجهه امرأة كافحت كي تستريح في نهاية حياتها.

* * *

في الأسابيع التالية اقتربت من تفاصيل حياة حسام، كنت أزوره في البيت فترات الصباح قبل نزوله إلى عمله في محل تصوير مستندات أمام كلية التربية. استمر خوفي من عودته رغم ما حدث له، لكنه أثبت

في الفترة التي تلت خروجه من السجن انه قادر على الحياة. أدهشتني الثقة التي يتصرف بها، بل رأيت – خلال اقترابي منه – ما آلت إليه أمور حياتي، وتعرفت عن قرب على ذلك الظل الكئيب الذي ألقيه على ما حولي. في الليل لا تكف الوساوس عن مطاردته، يطمئن ثلاث مرات أو أكثر على إغلاق الأبواب والشبابيك، وما أطلق عليه أحلاما لم يكن غير كوابيس، جثة تتمزق في الفضاء وتطير أشلاؤها مثل بالونة انفجرت. أصوات مكتومة لا تتركه ينام هادئا أبدا، عمال يدقون جدران الدور الأرضي، والبيت يهتز على وشك السقوط، أحيانا لا يستطيع تحمل أصوات تهمس في النوم بأمور يود أن يفهمها، ففيها إنقاذه، يفتح عينيه، فلا تكف تلك الأصوات عن التردد خافته، قال لي، " البيت مسكون "، وفي النهاية يكون مضطرا لأن يستيقظ ويسمع صوته، هو نفسه، يئن كأنه شخص آخر يتفرج على نفسه.

يحكي تلك الكوابيس على أنها أحداث من الضروري أن تحدث، لا يرغب في التخلص منها لأنه يعرف استحالة ذلك. أنها جزء منه، ولذلك يصبح غير عابئ بها في اللحظة التي تنفصل عنه. لا يهتم كثيرا بذلك التأثر الذي أبديه أحيانا، يؤدي أعماله اليومية كأنه مبرمج، لا يعبأ، لا يحافظ، لا يحب، لا يخجله أن يكره، إحساس شفاف بأن الآلام لا يجب الفرار منها، أنها مكون من مكونات أيامنا، من جسدنا، من أشياء تخصنا، فلا يجب الفرار منها. يعرف أكثر مما أعرف أن الحياة قلق، فترة قصيرة سوف يقضيها كيفما تكون.

ذات يوم حدثته عن " ماجدة "، عن الهم الذي تركته، والفضيحة التي سببتها لي في العمل وفي البيت، والحياة غير المستقرة مع زوجتي. قال إن هذه الأمور طبيعية تحدث حولنا كل يوم. تطلع إلى وعيونه تلمع، بنوع من الاهتمام الحي الخائف، قال إنني اعتقد الحياة أكثر مما يجب، وكل ما يحدث لي سببه الأحلام التي لم أكن قادرا على تحقيقها، الأحلام التي لا ينفذها المرء تتسلط عليه. قال أني يجب أن آخذ الأمور ببساطة وأفهم الوضع على حقيقته، ما مر قد مر ولن يعود والتشبث به يعني كآبة وقلة عقل.

تلك الأسابيع حفلت باهتمامات وأحداث صغيرة عزلتني عن التأثيرات العادية لحياتي. أسهم النقاش – الذي بدأ منذ الأيام الأولى لوجود حسام – حول زواجه واستقراره في البيت، في تغيير جو تفكيري. أحداث مهمة كان لها وزن بدت خفيفة التأثير كأن ثقلها جاء من طريقة تفكيري أكثر من تكوينها نفسه. اهتزت الصورة وبدت أيام وجود " ماجدة " في دار الكتب، كأحداث تمت في زمن آخر، رغم أنها تركت العمل قبل عام واحد. أحيانا تصيبني الدهشة من الكآبة التي حطت علي في تلك الفترة، وأدركت تلك الهالة التي أطرت بها صورة " ماجدة "، زينات العرس التي اخترعتها كي أقيم وزنا لتفاصيل هشة حدثت في بدروم دار الكتب. بدت قصتي صغيرة، تافهة تقريبا، بالمقارنة بما حدث لحسام.

بعدة عدة أشهر أصبح الموضوع الوحيد لحديث " حسام " هو بيع البيت، الذي لم يعد يتحمل العيش فيه، وبعد أن كانت الأحاديث عامة

اقتربت بمرور الوقت من التفاصيل، من أسعار العقارات في المدينة والثمن المحتمل للبيت، وهل سيتيح له نصيبه أن يؤجر شقة ويدخل في مشروع مكتبة صغيرة لبيع الكتب الإسلامية والزى الإسلامي.

في البداية اعتبرت تلك الأحاديث مجرد شكوى من الظروف، تقليد من تقاليد الحديث اليومي، يشكو الناس من البيوت والشوارع ولا يفكر احد في تغيير شيء لكن انتقال " حسام " إلى مناقشة التفاصيل نبهتني إلى جدية الموضوع، فالبيت، بشكل ما، هو المكان الحصين الذي يمكن للمرء أن يعود إليه لو انهارت حياته. أثناء مشاكلي مع زوجتي كثيرا ما فكرت أن أترك لها الشقة وأعود لأسكن في بيتنا. كان مرفأ أخيرا، بدونه سأكون أثناء مشاكلي معها، بلا مرجع، بلا فكرة تمنحني حسا بالقوة والحرية. أما " حسام " فقد ظهر كأنه قد تخلص من احتياجه لمكان يعود إليه، وربما أراد تحطيم تلك الفكرة والعيش بلا سند. خفت، حقيقة، من فقد البيت، ومن عدم القدرة على حل المشكلة، وأربكني إلحاقه أن أحسم أمري، فتعللت كثيرا بارتباط " نورا " بالمكان، وطلبت منه أن نتمهل فلا يجب أن نتعجل في أمر خطير على هذا النحو.

ظل موضوع بيع البيت مربكا، أهرب من الحديث فيه بجدية، غير انه تحول إلى مركز للتفكير؛ نواة تدور حولها مجالات مغناطيسية من التشوش، أفكار متقاطعة تبرق فيها لمحات من الأمل ما تلبث أن تنطفئ أثناء الدوران، تترك الارتباط وقد انطوى على نوع غامض من الأمل، يعطي حسا بأن الحياة مفتوحة بشكل ما. تساءلت كثيرا عن العلاقة بين بيع البيت وانفتاح الحياة، وخيل إلى أنني أراكم العقبات في وجهه

الفكرة، خائفا منها، لا أتخيل نفسي بدون البيت، وأقيم وزنا زائدا للخلافات مع زوجتي، تلك الخلافات التي كفت عن أن تكون جادة منذ حادثة كسر ذراعي. كنت في الحقيقة غير قادر على مواجهة فكرة قديمة بأن البيت ليس سلعة، لا يمكن أن يباع، ومن جهة أخرى لا أملك تصورا عن الطريقة التي يمكن أن يتم بها إقناع "نورا" بالفكرة، فقد بدا لي أن التخلص من البيت بالنسبة لها يشبه حرمانها من أخيها أو ابنها.

تبدو هذه الأمور أحيانا غير معقولة، لكنها حقيقية. خوفي من أبي لا يزال حيا في شعوري بأن بيع البيت أمر لا أقدر عليه، انه أبي سائلا في الجدران: حياته الشقية وأحلامه، بيع البيت تخلص منه، نوع واضح من الخيانة. هذه القشرة من الرفض التي ازدادت صلابة كلما فكرت في الموضوع، تحبس خلفها إحساسا بأن الحياة قد تكون مفتوحة إذا زال البيت. كان ذلك أمرا ظاهرا وعمليا. سوف أسكن شقة جديدة، وسيتوفر معي مبلغ من المال يجنبني القلق بشأن مصاريف البيت. وماذا بعد؟ ماذا بعد أن تتوفر مصروفات كافية وشقة أخرى، هل ستكون الحياة مناسبة، مختلفة عما هي عليه؟ هل تستحق تلك الخيالات التفريط في البيت؟ أفسدت هذه الأسئلة تقدم رغباتي كي تأخذ مكانها في مقدمة التفكير.

لم يكن حسام يهتم بتلك المعاني المتعددة للبيت، فهو بعيد عن التفكير العاطفي، تتهاوى هذه القشرة الصلبة من الروابط أمام أفكاره العملية البسيطة. يسألني عن السبب الذي يجعل بيع البيت صعبا. لا

يصح أن نبيعه لأنه يشكل رصيدا لنا " رصيد؟ " ذلك أم ر صد حيح تماما. إذا احتجنا إلى الرصيد فماذا نفعل؟ أكتفي بالصمت م دعيا ان ه ليس هناك حاجة ماسة. الرصيد يصان من اجل الحاجات الماسة، كان يقول، حياتك بهذا الشكل في تلك الشقة الخانقة ألا تصـ لح لأن تكـ ون حاجة ماسة؟ ثم أليست خسارة كبيرة أن نترك البيت هكذا مجمدا. أنـ ا لن أعيش فيه، تأكد من ذلك.

أحيانا نتبادل تلك الآراء في جو من الود والحماسة وغالبا يشـ وب حديثنا توتر كنا نخاف منه ونحاول قدر طاقتنا ألا نسمح له أن يعود بنا إلى ذلك الحس الكئيب لعلاقتنا القديمة. يمـ ر علـ ي " حسـ ام " فـ ي الصيدلية، وهو عائد من عمله في الليل. نجلس أحيانا في مقهى صغير في الشارع الرئيسي. أشكال متعددة من مناقشة الموضوع طرحت علينا مزيدا من الحيرة وأحيانا كنا نستغرق في الحديث كأن البيت قـ د تـ م بيعه، نسمة هواء تهب علي من خلفه، مشوبة، فـ ي الغالـ ب، بحـ س بالذنب، لا أستطيع أن أخفيه، أو أتعامى عنه، نوع من عدم التصـ ديق والخوف من إنجاز ذلك، وإدراك أن البيت قد يقـ ف فـ ي قلـ ب تلـ ك المحاولات؛ الأب المعاند في جوف البيت سوف يرفض أن يتحرك.

ذهبت إلى بيتنا يوم الجمعة. لم تكن نورا في حالتها العاديـ ة. كـ ل مرة أدخل البيت تكون منشغلة: تنفض الغبار عن الشبابيك، أو تكـ نس مدخل البيت، أو تمسح أرضية المطبخ. تجد دائما ما يمكن عمله. فـ ي تلك الجمعة كانت تجلس في الصالة شاردة، لم تغير ملابسها. لم يكـ ن حسام موجودا. وردت باقتضاب عن سؤالي عنه بأنـ ه نـ زل يصـ لي

الجمعة. ما حدث بينهما من خلاف ظاهر في حزنها، هي حريصة على البيت، لكنها من جانب آخر تعتبر حسام مسئوليتها، ومنذ أن رجع وهي تحدثني أن نتعجل ونزوجه حتى يستقر، فلا نعرف فيما يمكن أن يفكر بعد ذلك. في ذلك اليوم بدا أن حلمها يتبدد، ينشـ ـق قسـ مين. إن كـ ـان يوافق على الزواج فإنه ينوي نية لا رجعة فيها أن يبيع البيـ ـت. كـ ـان صمتها به من النفور والغضب أكثر مما به من الحيرة، فالأمور مـ ـن وجهة نظرها لا تسير كما ينبغي. حاولت أن أقنعها بأن بيع البيت فيـ ـه مصلحة لنا جميعا، لكنها قالت بغضب:

" البيت هو اللي ربطنا. حسام هيلاقي أي طريقة يحل بها مشاكله، إلا بيع البيت "

قلت إن الانفعال لن يحل مشاكلنا، يجب أن نجلس ونتحدث. اتسعت عيونها:

" أنت موافق، أنت اللي شجعته "

كانت تلك الطريقة في التفكير التي تنسب أخطاءنا إلى شخص آخر، واعوجاجنا إلى أصدقائنا أو الظروف أو أي سبب خارجي، سمة مـ ـن سمات التفكير في بيتنا، طريقة أملاها خوف أمي علينا، طول الوقـ ـت نحن صالحون والفساد يأتي من الخارج. استفزني أن أرى ذلك الطيف من الأفكار مازال حيا، كأننا لن نكبر أبدا، لن نفهم أو نتعلم:

" أنت عارفة أن الفكرة فكرته، وهو اللي بيسعى وراها. أنت عارفة

"

" لو أنت مش موافق، عمره ما يفكر في الموضوع "

" أنا مش موافق، وهو هيفكر، وهيدور على طريقة ينفذ بيها اللي عاوزه، والنتيجة نقف وندبح بعض عشان البيت؟ "

عاد بعض الهدوء إلى ملامحها، ربما أيقظتها الخلافات المنتظرة التي قد تحدث لو أننا اختلفنا أكثر من ذلك. وجه نورا صاف، ترى فيه الغضب صريحا، وعلامات الهدوء تسكنه بمجرد تغير جو التفكير؛ انه جزء من نقاء سريرتها. لم يفارقها الحزن وبدت على وشك البكاء.

لم يرجع " حسام " من صلاة الجمعة حتى الثانية بعد الظهر. تأكدت من أننا لن نستطيع التفاهم. أغلقت " نورا " على نفسها صمتا دائريا مكتملا لا يمكن النفاذ إليه، جالسة على الكرسي في نفس مكانها، حتى عندما تبدل وضع جسدها أو تعيد ربط الإيشارب، فإنها تفعل ذلك بمعزل عن إدراكها. عرضت عليها أن أوصلها إلى البيت. حملت حقيبتها في صمت ونزلت السلم ورائي. أغلقت باب البيت بالجنزير حسب وصيتها، وركبنا سيارة أجرة. لم نتبادل حرفا واحد حتى نزلت. في ذلك اليوم أدركت انحيازي لفكرة بيع البيت. بدا الأمر كأنه وشيش في خواطري يبحث عن تجسد. تيقنت من أن ذلك قد يفتح لي آفاقا أخرى للحياة. لقد فهمت صدق حدس " حسام ".

منذ أن انتقلت للعمل في مكتبة صغيرة، بعد حادثة التحرش الجنسي، أصبح من عادتي أن أحمل صحف الصباح وأقضي بعض الوقت في الحديقة العامة. ساعدتني هذه الساعات أن أفلت من أسر

الحس الكئيب الذي خلفته حكاية " ماجدة ". حملت اليوم الصحف وذهبت إلى هناك، لم أكن راغبا في قراءة الصحف أو التفكير في موضوع بيع البيت، فقد أرهقني ذلك بالأمس. تابعت العامل وهو يحبس القرد أثناء وضع الطعام محترسا من أن يفلت مثلما كاد أن يحدث في الأسبوع الماضي. قضيت بعض الوقت شاردا أفكر في علاقة الاستئناس بالتوحش، وفي القوة الضاغطة للألفة وهي تنتج أنيابا وأظافر للتوحش. عندما خرجت إلى الطريق مرة أخرى كي أعود إلى العمل توقفت سيارة أجرة، ونزلت منها أسرة؛ رجل قصير القامة يرتدي نظارات سميكة العدسات، وامرأة شابة، وطفل صغير. وقف الرجل ينزل دراجة صغيرة من فوق سطح السيارة. وفي اللحظة التالية وبعد أن استدرت إلى الشارع الجانبي وبالتحديد عندما شاهدت مبنى المكتبة الذي يحاول أن يقلد نمطا معماريا قديما، حلت الفكرة في ذهني؛ يمكن أن أشتري سيارة أجرة، أن أستعيض عن عملي المسائي الرتيب بالعمل على سيارة.

حطت الفكرة كالطيف، وبدت كأنها إشراق، كان يبحث عن طريقة للوجود خلال الأسابيع الماضية. حلم قديم أعاد بعث نفسه من ركام حياة مرت. لم أستطع البقاء في المكتبة. رغبت في الحركة، كأن شيئا قد انفلت من الأسر وراح يبحث عن حركته في جسدي. غادرت المكتبة قاصدا وسط البلد، خائفا أن أفقد الفكرة. تجولت في الشوارع التجارية وأسواق الملابس والحلي وأدوات الطعام، وجلست قليلا في مقهى أمام المسجد الكبير. تبدى لي أن هذه الفكرة هي أكثر الأفكار

أصالة وإن نفذتها فقد أنقذت شيئا مما فقدته. كل مراحل حياتي تمت بصورة آلية، وأمامي الآن فرصة كي أنفذ فكرة مشرقة. بدأ الخوف يسيطر علي، ألا أكون قادرًا على تنفيذها. ركبت سيارة أجرة ونزلت على ناصية شارعنا. عندما فتحت باب البيت، تذكرت ذلك اليوم الكئيب الذي استدعتني فيه أمي لتخبرني بأن " حسام " سرق كفنه !. كانت غرفته مفتوحة النافذة وسريره غير مرتب. لابد انه كان مستعجلا في الصباح. جلست في الصالة، بعد أن أعددت كوبا من الشاي، ولاحظت أن الإشراق يتباعد. أثناء عودتي إلى العمل، عرفت انه حتى لو لم أشتر سيارة فإنني انحزت بالكامل لبيع البيت. كان العمل في الصيدلية هذا اليوم أكثر إرهاقا. العمل على سيارة أجرة سوف يوفر لي مزيدا من الحركة. " الحركة!! " أن تكون طول الوقت موجودا في مكان آخر، حتى لو كانت نفس الشوارع. تحدثت مع الدكتور ملاك حول بيع البيت. كنت خائفا من صيغة التنبؤية. رغبت في سماع حديثه لأتأكد من صدق ميلي. أريد أن أنظر في وجه المشاعر التي أثارها، في وجه الحس الأخلاقي بأن بيع البيت نوع من الجريمة، إهدار لتعب أبي، وحرماننا سنوات طويلة، وأن أتحمل الفكرة الخفية بأن البيت " وقف " سيرفض فكرة البيع، وأننا مثل أطفال نحلم بالتخلص من شيء اكبر منا.

عادت أفكاري لتتوازن. تعادلت الكفتان؛ الأشياء التي تدفعني إلى بيع البيت والتي تدفعني إلى الحفاظ عليه. أحيانا كنت أشعر بالتشوش فوق تحملي، وتصبح الآلام حادة مرة أخرى، وخوفي من فقد البيت

يعيد إلى فكرة الضياع. حالة التعادل مرهقة، فهي تبدو كفراغ غير محتمل. أردت أن أتحدث مع شخص آخر. الحديث مع "سهام" كان أمرا بعيد الاحتمال، لأنني كلما فكرت فيه تذكرت روحها العدائية. على ما يبدو لم يكن لي مخرج غير ذلك.

في ليلية صيفية كنت راجعا من عملي. الشوارع لازالت صاخبة كأننا في السادسة مساء. على الرصيف المواجه للبيت شباب يلعبون الطاولة وقد جلسوا فوق صناديق الكوكاكولا، وصنعوا منضدة من صناديق أخرى، تحت عمود النور، وشغلوا الكاسيت بصوت عال. كانت "سهام" في الشرفة تلم الغسيل. قالت إن "نبيل" "شبط" ونام عند جدته. تلاشت فكرة الحديث معها، لا يزال بيننا شيء ثقيل لا يسمح لنا بالتواصل، جلسنا في الشرفة. الليل واسع، والسماء بعيدة وأغاني الشباب على الناصية تصل إلى شقتي خافتة. تسلل الحديث عن بيع البيت، كأنه شكل من أشكال كسر الصمت. لم يكن يصل إلى الشرفة غير بقايا ضوء الصالة ورغم ذلك فقد رأيت لمعان عينيها وهي تقول "أخوك عاوز يعيش. حقه. واحنا كمان نخرج من هنا. الشقة تخنق" نبرتها في الحديث انفتحت قليلا، اختفى منها الحماس الكئيب بالصدد والرغبة المضمرة في الانتقام. ملامح وجهها منتبهة وحية. في الظلال بدت بها مساحة من جمال خاص. الحاجز لم يختفي وطول الوقت أدرك أن عداءها لم يتلاشى بالكامل بل هو وجه آخر مركون مؤقتا، يمكن ارتداؤه في كل لحظة، والضغينة ليست شيئا صلبا لا يمكن

تفتيته، بل فضاء مرن يتلون ويتغير بمرور الوقت، ينزاح أحيانا، وفي مرات أخرى يتواجد بشكل كثيف كأنه اسمنت مصبوب.

قادنا الحديث عن البيت إلى الحديث عن حياتنا، حسناتها بالعتاب والرغبة في التفاهم دفعها أن تبوح بما تشعر به أحيانا من أنها لم تعد تحمل لي أي مشاعر، ومن جهة أخرى لا تعرف لم تستمر معي. تشعر أن الخلاء يحيطها. أبوها يرفض فكرة الطلاق من جذورها، وهي أيضا سوف تكون مجنونة إذا طلبت الطلاق. البيوت مليئة بحياة مأساوية، وستبدو مشكلتها في ضوء الأشياء الخطيرة التي يطلب الطلاق بسببها كأنها دلع بنات. لا تطيق أن تكون مطلقة. لو تم ذلك فسوف تشعر كأنها تحمل مرضا خبيثا ستظهر آثاره حتما على وجهها. سيتحدث الناس معها، ومن وراء ظهرها سوف يقولون: " يا عيني، مطلقة ". قالت: " إيه اللي أعمله بحياتي من غير الحياة دي ". هذا الوضع هو الشكل الوحيد للحياة. خارج هذا الإطار، هي غير موجودة، لم تتربى على أن تعيش وحدها بعيدا عن البيت. بعد أن حصلت على الثانوية، رفض أبوها سكنها في المدينة الجامعية عندما حاولت أن تلتحق بكلية تحبها في مدينة أخرى. فضل أن تدرس في كلية اقل من مجموعها ولا تغادر المدينة.

في الليالي التالية تكررت أحاديث مماثلة، ومع ذلك لم أستطع البوح بفكرة شراء سيارة أجرة. ذات يوم كنت أبحث عن رخصة القيادة التي حصلت عليها بعد عودتي من العراق، في أوراقي القديمة، واقفا في الصالون أنظر إلى صورتي في ركن شهادة الثانوية العامة كأني

شخص آخر، رأتني " سهام " وسألتني عما أبحث. كذبت عليها قائلا عن أوراق تجنيدي. أصابني هذا بالخوف. بدا لي أنني خائف على الفكرة من الضياع لو أخرجتها من خيالي، وحولتها إلى كلمات، كأنني أحافظ على لحظة الإشراق التي جربتها أثناء خروجي من الحديقة العامة، وأدركت في نفس الوقت أنها عدم ثقة في القدرة على التنفيذ، يجب على أن أنزوع صفة الحلم عن تلك الفكرة وأحولها إلى أمر واقعي إذا كنت جادا.

في الليلة التالية مر علي حسام في الصيدلية وأخبرني أننا سنلتقي بعد العمل في بيت نورا؛ زوجها مسافر ولابد أن ننهي الموضوع. عندما وصلت كان نقاشًا حادًا يدور بينهما. قامت " نورا " لتعد الشاي ولم يتحمل حسام الصمت فقال بغضب:

" اختك صعبة جدا "

" عندها حق. البيت روحها ".

عادت وجلست صامتة. لم يبد عليها أنها مقتنعة بتلك الإجراءات التي حاول بها حسام أن يضمن لها نصيبها. قالت مرة أخرى، إننا بذلك سوف نضيع الرباط الذي يربطنا، ولو علم زوجها، ولابد أن يعرف، فسوف يأخذ كل شيء، وبذلك تكون هي الخاسرة بيننا. البيت ستر لها وسوف نحرمها منه. ظل حسام على صمته وقال انه لن يكرر كلامه، وبالنسبة لزوجها هو يعرف كيف يتصرف معه. قالت نورا انه سيوافق

أمامك وبعد العودة إلى البيت سوف ينكد عليها حتى تسحب الفلوس، سيأخذها ويصرفها على مشاريعه، ولن يترك لها مليما واحدا.

في طريقي إلى البيت بدأت مخاوفي من فكرة " الوقف " تعود مرة أخرى. من الممكن أن أفقد الفكرة التي أعطت حياتي ضوءا في الفترة الأخيرة. سيكون من الصعب علي أن أتحمل حياتي لو فقدتها. تحدثت مع " سهام " في تلك الليلة عن فكرة التاكسي، وأخبرتها بأحزان نورا. قالت إن علي أن أصبر، وبعد فترة من الصمت قالت كأنها وجدت مبرر معقولا:

" على الأقل تبقى حر نفسك "

* * *

كنت وحدي في قاعة المطالعة، أقرأ جرائد الصباح، عندما أخبرني عامل المكتبة بأن لي مكالمة تليفون. ظننت أنه "حمام" يريد أن يخبرني بما توصل إليه مع زوج "نورا". في البداية لم أتعرف على الصوت النسائي الذي كان بعيدا نبرته حادة رتيبة كأنه مسجل على اسطوانة. بعد قليل من الصمت وقبل أن تنطلق باسمها عرفت أنها "ماجدة". نبرة صوتها مختلفة قليلا عن صوتها الطبيعي. تبادلنا أسئلة روتينية عن أحوالنا، تخللتها فترات قصيرة من الصمت سمعت صوت تنفسها. قالت إنها سعيدة بأن أحوالي على ما يرام، وصمتت، عادت مرة أخرى للحديث قائلة أنها تحتاج أن تتحدث معي، فأنا صديق على حد تعبيرها. قالت انه ضروري جدا بالنسبة لها. كانت تلك الألفاظ غريبة علي، كأنها تتحدث مع شخص آخر. عام كامل من أحداث متلاحقة أهال التراب على الشخص الذي كنته، أو استقرت الأمور في ذهني على هذا النحو. تركت السماعة وعدت مرة أخرى إلى غرفة المطالعة. بحكم العادة أمسكت الصحيفة، لكن ذلك لم يكن حلا. لم أستطع مقاومة ارتباكي. سأسافر إلى القاهرة في قطار الثانية بعد الظهر، وسوف تنتظرني في كافيتريا المحطة بعد نصف ساعة من الآن. كانت الساعة العاشرة والنصف. نصف ساعة وقت طويل، مساحة صمت يمكن أن تتيح لي فهم هذا الشيء الذي حط علي من السماء ليعيد ارتباك حياتي. كانت قد تركت العمل منذ أكثر من عام، وعرفت أنها تزوجت وتعيش الآن في القاهرة. منذ البداية أدركت أنني لن أستطيع مقاومة الذهاب. على الأقل كان علي أن أعرف ماذا تريد.

أثناء سيري إلى لقاءها تركت نفسي لتوتر تلاشي في اللحظة التي عبرت فيها ميدان المحطة المزدحم كالعادة.

كانت تجلس بجوار الشرفة، تنظر إلى الخارج، تلبس نظارة شمس، وجهها مضيء، وأدركت على الفور أن المكان غير مناسب لها. المناضد عليها بقع صواني الشاي والذباب يتموج في الفضاء الصامت للكافيتريا. كانت ترتدي فستانا اصفر ورغم الحجاب فقد بدت حزمة من الضوء، مختلفة إلى حد كبير عن تلك الفتاة التي دخلت علينا المكتبة منذ عامين، متعالية وكئيبة، وتحب الألوان الداكنة.

بسمة باهتة أظهرت لون الروج على شفتيها وذكرتني بذلك التعلق الذي أحطت به تلك الشفاه أثناء الحديث معها حتى نبهتني ذات يوم بانفعال قائلة: " أنت ليه بتبص لشفايفي وأنا بتكلم ". كانت لها تلك الطريقة المفاجئة في الأسئلة، تربك محدثها، وتستخدمها كأداة من أدوات السيطرة على الجو المحيط بها. الآن شعرت بشيء مختلف، وكأن القشرة الصلبة التي غطتها أثناء عملها معنا ذابت وحل محلها غلالة غير مرئية لكنها محسوسة من حس أنثوي سيطر علي في الدقائق القليلة التي قضيناها في الكافتيريا. خلعت النظارة، قبل أن أصل إليها. اتسعت ابتسامتها. بدت على وشك أن تقوم من مكانها. كان وجها جميلا، والإيشارب الأزرق، انزاح قليلا عن جبهة واسعة لامعة فظهرت واضحة مقدمة الشعر الكثيف الأسود الذي رأيته ذات يوم.

بعد أسئلة معتادة عن الأحوال اقترحت أن نجلس في كافتيريا الفندق القريب من المحطة، لأنها تريد أن تتكلم معي في أمور شخصية جدا.

قالت ذلك بطريقتها الحاسمة، ونطقت لفظ " شخصية " بانتباه جعل الكلمة مخيفة ومشوقة. سرنا على الرصيف صامتين، الجو حار والشمس تلمع على أرصفة المحطة والسماء بعيدة جدا، كأنها غير موجودة، خلف القطارات المجرشة بالقرب من سور مائل عليه إعلانات مكتوبة بحبر أزرق بالخط الكوفي، خلف السور كانت الضواحي القبلية للمدينة كئيبة تحيطها غلالة من الدخان.

تلاشت مخاوفي، وبقي مرافقا لي بعض الارتباك. إحساس بأنني أخطأت بالمجيء يظهر أحيانا ويتوارى سريعا مخلفا وراءه دوامات من القلق. كانت " ماجدة " تسير بثقة تتحدث عن أن هذه هي المرة الأولى التي تزور فيها المدينة من يوم زواجها في الخريف الماضي. جاءت لترى أباها في المستشفى. أزمات القلب تلاحقه، ولابد أن يبقى عدة أيام في العناية المركزة. انتقلت أمها لتعيش مع أختها الكبيرة. وتشعر ماجدة أخيرا بأنها قد أصبحت وحيدة حرة كما قالت. كان ذلك واضحا وهي تسير بغير اهتمام ونحن نعبر أمام أكشاك السجائر وباعة الصحف في ساحة المحطة. أمسكت ذراعي حين كنا نعبر ارتباك المرور في مدخل النفق أمام محطة أتوبيس المدينة وظلت ممسكة به حتى وصلنا إلى باب الفندق.

كانت الكافيتريا في الدور العاشر، واختارت أن نجلس بجوار نافذة زجاجية واسعة. لأول مرة أرى المدينة من هذا الارتفاع. بيوت صغيرة داكنة، وغبار خفيف يحيط بالمنظر. المدينة مترامية بعيدة، تبدو بلا نهاية. وقفت قليلا أطل من النافذة، وجاءت لتقف بجواري.

عندما عدنا إلى المنضدة راحت تتحدث ببطء وبجدية تلك الجدية التي تحدثت بها عن وسوسات الشيطان. قدمت الموضوع بمقدمة صغيرة تخص ثقتها في قدرتي على فهمها دون أحكام أخلاقية، ودون إدانة. كان لابد أن تتحدث مع شخص من خارج حياتها تثق به، لأن الموضوع يمس صلب حياتها.

في الصيف الماضي وصلت المشاكل بينها وبين أبيها إلى طريق مسدود، من داخلها كانت قد استسلمت. أي شيء يساوي أي شيء. لم تكن تعرف أين تعيش، انسدت طرق الحياة حولها وتخربت، وبدت كالمجنونة في البيت والعمل، ولم يكن لديها أية خطة لحياتها. أكدت لي أن ما حدثتني عنه في المكتبة كان صحيحا، وأنها أرادت أن تعيش في هدوء؛ مفهرسة في المكتبة العامة، تسافر في نهاية الأسبوع لتثرثر مع عمتها. أنها حياة مناسبة لها، كما قالت، لكن كيف يمكن أن يفهموا ذلك. في نهاية الصيف الماضي، وهي في تلك الحالة من التعاسة، وعدم الاتزان، تقدم لخطبتها شاب، طول بعرض، رجل أعمال، كما يقولون، يدير مصنعا لإنتاج أكياس البلاستيك، وأسرته تمتلك حق توزيع بعض الأجهزة الطبية لعدد من الشركات الكبيرة. كان يمت بصلة ما إلى عمها، أدركت منذ البداية أن معركة سوف تقوم ولا مجال لتجنبها. صلات العمل واضحة. وكان عليها أن تستثمر ذكاءها وتدير المعركة لصالحها. صحيح انه لا يمكن لأحد أن يجبرها على الزواج لكنها رأت إصرارهم هذه المرة، وطاقتها على المقاومة كانت قد جفت، ولأول مرة في حياتها تشعر بأنها محبطة تماما وعاجزة. قررت أن تقبله، لكن

بعد أن تجعلهم يضطرون للضغط عليها، حتى يبدو الزواج كأنه قد تم قسرا. لا تعرف لم كانت تفكر على هذا النحو، لكن هذا ما حدث، لأنها الآن تدرك كم أفادها هذا التفكير، فقد جعلها أكثر حرية كما تقول.

هي الآن تعيش على هواها، الوقت واسع، لا تعرف كيف تملأه، سافرت إلى تركيا، وسوف تسافر إلى اليونان هذا الصيف. الظروف هي التي صنعت كل شيء كما تقول. نبرتها خفتت بمرور الوقت وأخذت ملامحها تلك الجدية الصلبة. فتحت حقيبتها، وأخرجت علبة معدنية صفراء، والتقطت سيجارة خبطتها على سطح المنضدة وأشعلتها غير عابئة بدهشة لم أحاول إخفاءها. راحت تحكي ببرود ورصانة أعرفها عندما تستغرق في التفكير أو تتحدث في أمر علمي، تبدو وكأنها تنصت إلى صوتها وتراقب حركة أفكارها. في الليلة الأولى للزواج كانت خائفة جدا. اللعبة التي لعبتها ستدفع ثمنها. أدركت أن طريقتها الطفولية في إدارة حياتها لابد أن تقودها إلى مأساة. تشنج جسدها كأنه كتلة من الخشب، ثقيلة مظلمة خالية من الحياة. كانت تعرف انه الرفض لأن يلمسها شخص لا ترغبه. أدرك زوجها حالتها. عاملها بشكل عادي جدا بل بطريقة جعلتها تشعر، قليلا، بالأمان، وتركها عدة أيام دون أن يلمسها، بدأت تثق به، كان قد مر أسبوع وآن الأوان أن تبدأ الإجراءات العملية للزواج، هي أيضا بدأت تشعر بضرورة أن يحدث ذلك، لن تستمر الأمور هكذا إلى الأبد. كان زوجها ذكيا، عرض عليها أن يشرب مشروبا خفيفا منعشا كي لا يحدث لها مثل ذلك التخشب الذي حدث في الليلة الأولى. وجدت الفكرة جيدة.

وافقت شرط أن يكون مقبول الطعم. ابتسم زوجها وقال انه مستعد أن يحصل لها على مشروب من أوروبا إذا أرادت. أجاد تهيئة الجو، أطفأ النور وأشعل بعض الشموع وشغل موسيقى، منعت نفسها أن تسخر من تلك الطرق الصبيانية وأصرت على أن تعيش اللحظة كأنها حقيقة. كان المشروب طيب الطعم، وفي البداية أدركت يائسة أنها لا تستطيع أن تتخلص من الخوف، وقاومت بشدة لأنها لا ترغب في أن تكون فاشلة. شربت عدة كئوس، تلاشت مخاوفها، ولاحت لها حياتها الماضية حكة، راحت تحكي لزوجها مشاهد من حياتها، وأطراف من علاقتها بأبيها، وما كانت تفعله في المكتبة، وذلك اليوم الذي حدثتني فيه عن وسوسات الشيطان وكيف أرعبتني ومارست علي ألاعيب خفية لأنها أدركت تعلقي بها من أول لحظة. كان ذلك المشروب ساحرا. لأول مرة تطل على حياتها من بعيد، من فوق جبل، وتدرك أوهامها، ما كانت تظنه جبلا ليس إلا مجرد كومة من الحصى، البعد يؤدي إلى الكثير من الفهم، كما قالت، وتلك المشروبات تجعل المسافات ممكنة وأنت في مكانك.

إلى حد ذلك وكل شيء معقول، أعطاها زوجها الكئوس الأخرى، أدركت ما يدور حولها وخيل إليها انه يمكن إيقاف ما يحدث، لكن قدرتها على إيقافه كانت تأتي بعد أن تكون الحوادث قد حدثت؛ المسافة التي مكنتها من الرؤية والتمييز، وقفت عائقا أمام رغبتها في إيقاف ما يحدث لها. شعرت بزوجها يداعبها في مناطق غريبة، كانت تعرف تفاصيل العملية الجنسية ورأت فيلما علميا هي وأختها الذي تعمل

طبيبة، ورأت فيلما من أفلام البرنو ذات صيف في الإسكندرية، نام ت وهي متأكد من أن أمرا غريبا قد حدث لها. في الصباح رأت الدم فوق ملاءة السرير. كانت غلالة البعد قد تركت الأشياء بدون ذل ك الج و الضبابي، تركتها كما حدثت، عارية من أية مسافات. عرفت أن زوجها قد أفقدها بكارتها بإصبعه، وعندما رقد فوقها عاريا، شعرت بثقل جسده فقط وبدل عضوه كانت تشعر بإصبعه وكفه.

قضت اليوم التالي خائفة متوترة. تراءت لها الصور مهزوزة، بها من اليقين نفس القدر من الشك، خافت أن تكون الضغوط التي تعرضت لها في الأشهر الأخيرة قد أثرت في عقلها. نامت وبكت أثناء نومها. عندما استيقظت كان زوجها قد غادر البيت. بقيت وحدها في بي ت مكون من طابقين وحديقة صغيرة، تنزل وتطلع وتطلب قهوة وشاي وعصائر دون جدوى. عندما حل المساء كانت مخاوفها قد وصلت إلى نهايتها. اتصل زوجها يعتذر عن عودته مبكرا واقترح أن ترسل السائق بالسيارة لإحضار عمتها إذا كانت تشعر بالملل. تحولت شكوكها إلى غضب وبدأت تعد نفسها لمعركة أخرى. في اليوم التالي طلبت هي الشراب، وأعدت المائدة. أصرت على اليقظة. في الليل أدركت كل شيء. كان عضو زوجها لا يتعدى في نموه عضو طفل الخامسة من العمر. النفور الذي جربته في الصباح كان نفورا من نفسها. كراهيتها للموضوع كانت بلا حدود، شعرت بدوامات من الدخان تتكون في أحشائها، أمر مؤلم جدا، كأن كفا قوية تقبض على روحك ولا تستطيع

التنفس. أرسلت الخادمة لتشتري لي علبة سجائر، وبدأت تدخن منذ ذلك الصباح.

بدأت شهور أخرى من المتاعب، شهور شديدة الحسم في حياتها. أتاحت لها خطتها التي نفذتها أثناء الخطوبة أن تنتقم من أبيها ومن عمها. استطاعت أن تحملهم مسئولية تدمير حياتها كما أدعت. لا تعرف كيف يمكن أن يكون الإنسان منقسما إلى هذا الحد. في الوقت الذي كانت تدرك فيها نصيبها فيما حدث، كانت (ببجاحة) تحملهم المسئولية وتبكي بحرقة، لم تكن رغبتها في البكاء زائفة، أحيانا تبكي في صمت، بحزن حقيقي على أنها ظلمت، وتنام بعض الليالي تشعر بالغبن كأن الله يعذبها على ذنوب لا تعرفها. بمرور الوقت توارى ذلك الصوت الذي كان يحدثها عن دورها، وتورطت في اقتناع زائف بأن حياتها قد تم تبديدها من قبل قوة لا تعرفها، وأنها في سبيلها للانتقام. موقف أبيها وعمها ساهم في ترسيخ هذه الرؤية. اكتشفت كل شيء أثناء المشاورات العائلية لحل المشكلة. كان الموضوع بسيطا، يمكن الحصول على الطلاق بحكم المحكمة بعد توقيع الكشف الطبي على زوجها. لكنهم كانوا خائفين من عائلة الزوج، ومن خسائرهم، ومن الفضائح التي سوف تثار أثناء ذلك؛ كانوا خائفين فعلا، فعائلة زوجها الكبيرة ذات النفوذ لم تكن ستسمح بهذا، وكان التدمير ينتظرهم، كما خمنت. حاولوا التفاهم مع الزوج، لكن رفض كل اقتراحاتهم، وقال انه سيحتفظ بها ولو أدى ذلك إلى فقد كل ثروته، عند هذا الحد بانت ليونتهم ورغبتهم في التخلص منها.

اكتشفت قوتها في تلك الأشهر. كانت تتعمد أن تتحدث بصراحة في المسائل الجنسية، وترقب وجوههم التي يظهر على صفحتها خجل مفتعل، وشفاههم التي تردد المأثورات الدينية لا تحميهم مما تفعل. كانت تتلذذ بذلك. راقبت سقوطهم من نظرها، كما قالت. في البداية كانوا ثائرين مصرين على الطلاق، وبعد المشاورات بدأ اللين والتملص ثم تجلي موقفهم النهائي متواريا داخل النصائح والأمثال. قال أبوها ذات يوم في حضور عمها: "وإيه يعني؟ فيه رجال عندهم عجز جنسي وشواذ، وفيه رجاله بتموت في الشهور الأولى من الجواز. يعني الدنيا ما خربتش!" عرفت أن عليها أن تتصرف وحدها، عليها أن تشحن طاقة تفكيرها. قضت شهورا من الوحدة واليأس وشرب الخمر. لم تعد تفتح الموضوع. أهملتهم تماما، لم تتصل بأي واحد منهم، وبدأت تعامل زوجها ككلب، تطلب وتطلب، وتهدده بأنها سوف ترفع قضية وتطلب الطلاق. سوف تفعل ذلك، لكن في الوقت الذي تختاره. بدأت تشعر بالراحة من وضعها، اكتشفت مزايا لم تخطر لها على بال. الحياة مفتوحة أمامها. لا شيء يستحق البكاء والأمور ليست بهذه الجدية التي ظنتها. كل شيء يمكن أن يتحول إلى لعبة. كل ما يحدث للمرء يمكن السيطرة عليه وإعادة استخدامه.

صمتت "ماجدة". كانت قد دخنت قدرا كبيرا من السجائر. أعادت تكرار ما قالته حول تفهمها لوضعها وتقبله ومعرفة مزاياه. والآن آن الأوان لتعرض مشكلتها "الصغيرة" كما قالت: تريد أن تتجب طفلا. هذه هي الفكرة التي أنقذتها من اليأس. منذ ذلك الصباح الذي رأت فيه

ابن البواب يبول بجوار سور الجنينة، حلت الفكرة في ذهنها، ولم تعرف الهدوء بعد ذلك. سحر الفكرة يجذبها، والحياة مفتوحة أمامها. كل يوم تشعر بالمذاق العذب لهذا الخاطر. لن يستقيم كل ذلك البناء إلا إذا أنجبت طفلا، ولن تستريح إلا عندما تنجز هذا الهدف.

بدا كلامي سخيفا، عندما حاولت أن أعارض خططها، شارحا موقفا كنت أدرك تهافته، حول أن الحل الصحيح للمشكلة هو إعادة ترتيب الأمور من جديد، الرجوع إلى نقطة البداية، والخلاص من هذا الزواج، لكنها نظرت إلى مندهشة وقالت بغضب: " نقطة البداية؟ " وبعد صمت حاولت فيه أن تستعيد بعض الهدوء، أخبرتني بنفس الطريقة التي كانت تشرح لي بها ما غمض علي من خبايا خط التصنيف، إن الزمن قد تحرك ولا يمكن استعادة البدايات أبدا. من حسن حظي أن ميعاد قطارها قد اقترب، فلم يكن هناك مجال لقول الكثير من السخافات.

بعد أن تركتها في القطار، عدت أمشي في شوارع المدينة. بدأت أفيق من تأثير حكايتها واكتشف ما يخصني فيها. الورقة الصغيرة التي تركت لي فيها رقم التليفون مطوية في يدي، وصوتها وهي تشدد علي ضرورة أن أتصل بها عالي النبرة، أعلى من صوت حكايتها. خيل إلى أنني أدركت شيئا مما أردت أن توصله إلى. أدركت طيفا من الشيطان. بدا لي أنها الآن تريد أن تنتقم من كل شيء تريد أن تنجب طفلا من رجل عضوه الذكري لم ينم. كانت مفتونة بالفكرة الشيطانية، أكثر من أي شيء، وكنت – على ما يبدو – أول من تختبر عليه الفكرة. بشكل

ما عرفت أنها سوف تنفذها، باطمئنان، متيقنة من أنها ستنال بغيتها. لقد تصرفت اليوم بثقة أضفت عليها سمة امرأة مجربة. ليست ملهوفة على شيء. إن ما تتمناه هو طفل، سوف تحصل عليه بطريقتها. ستستخدم كل ذكائها وحسها الأنثوي المتيقظ، في اصطياد الفريسة المناسبة. لن يفوتها شيء.

* * *

سمعت " نورا " تقول: " أنا مش فاكره خالص ". كانت نبرة صوتها مرحة كأنها تخلصت من قلقها في الصباح. رغم موافقتها على بيع البيت، لم تكن تتخيل أن ذلك اليوم قريب إلى هذه الدرجة. فعندما عرفت أن المشتري سوف يأتي بعد صلاة الجمعة ليرى العقود ويعاين البيت، بدأت الصباح بصمت عابس. ظلت تدخل الغرف وتخرج منها، غير عابئة بسؤال " حسام " عما تبحث عنه. كذت أعرف حالات غضبها ونبهته أن يتركها. ثبتت سلما خشبيا قديما وطلعت فوق السطوح، أبدي حسام قلقه من سلوكها لكنها نزلت بعد قليل واختفت بعض الوقت حتى سمعنا صوت بكائها خافتا بعيدا غير ملحوظ يأتي من بير السلم. لم نكن نتوقع هذه العلامات غير الصريحة للحزن، خاصة أن حسام قد بذل جهدا كبيرا في تهدئة مخاوفها بشأن نصيبها في البيت، وعقد صفقة مع زوجها أقنعه خلالها أن تدخل نورا شريكا في المكتبة، وأضمر احتياطات قانونية لصيانة حقها.

سمعتها تقول مرة أخرى: " افتكرتها ازاي؟ "

بدا لي أن سؤالها به بعض الدهشة وصوتها خال من أحزان الصباح. يعرف حسام كيف يخرجها من حالتها. يعرف طرقا لطمأنة قلبها. سمعتها تقول:

" قصة سيدنا يونس؟ "

رد حسام:

" قصة سيدنا يونس "

أنصت إلى وشيش الماء في البراد محاولا أن أستعيد صورة " ماجدة ". لون الضوء المتسلل خلال السلك الذي يغطي النافذة الصغيرة للمطبخ، ذكرني بها. بدت بعيدة جدا. المسافة بيننا الآن مريحة خالية من التوتر. اندهشت من الطريقة المؤثرة التي ظهرت واختفت بها. في الأيام التالية على لقائنا في المحطة بدا لي أن ارتباكي قد عاد. تشبثت بي صورتها. أغواني ذلك الحس بالتحرر الذي ظهر في حديثها. تسلل إلى أفكاري وألقى ضوءا شفافا على الحياة التي أعد نفسي لها. أستطيع القول أن بعض أفكارها حول أن الحياة ليست معتمة على هذا النحو وأن كل ظرف نمر به يمكن أن يكون أداة في يدنا، قد مارست تأثيرها علي، خلال مشاويري مع حسام نتحدث مع السماسرة عن البيوت، ونرافقهم وهم يعاينونه، وأثناء عملي في الصيدلية الذي أصبح مملا وكريها بدرجة كبيرة، لكن هذه الأفكار كانت سبيلا أفقدها هي نفسها تأثيرها، فقد بدت لي بعيدة جدا وحياتها مرتبكة لا أستطيع الخوض فيها، وأدركت أنني وصلت أخيرا إلى ما يخصني، كانت فكرة العمل على سيارة أجرة تستقر أخيرا كحل لهذه الحيرة أو تجسيدا لها. ثم شعرت بأنها اختفت تماما. ذات يوم تذكرت رقم التليفون الذي أعطته لي بحثت عنه في البنطلون الذي ارتديته في ذلك اليوم كانت الورقة مفروكة داخل الجيب. لمست " سهام " لأنها لا تفتش في جيوب البنطلونات قبل غسلها، كانت متعجبة وهي تقول أنني، من يوم زواجنا، أفرغ جيوب ثيابي من المحفظة والأوراق بنفسي.

رائحة الشاي ذكرتني بجو بيتنا بعد الإفطار في رمضان رحت أراقب الألوان المتدرجة في شعلة البوتجاز وأنا أتابع صوت حسام. كان قد اندمج فيما يحكي وصمتت نورا تماما.

" كنت خايف ولما طفو النور عرفت أن عمري ما هيجلي نوم في المكان ده. النوم خطف عيني دقايق. قمت مش عارف أنا فين. متهيئ لي أني محبوس جوه جحر. لقيت على لساني دعاء سيدنا يونس في بطن الحوت: " لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين " وافتكرتك وأنت بتقولي إن أي واحد يكون في كرب ويدعي الدعاء ده ربنا يفرج عنه الكرب "

كان صوت حسام رتيبا ينخفض أحيانا، فلا أسمع بعض الكلمات. عندما رجعت إلى الصالة أحمل صينية الشاي توقف محرجا ولمحت ظلا من ذلك التوتر القديم الذي لا يموت بالكامل مهما ادعينا أننا تخلصنا منه. لم تنتبه نورا إلى ذلك التوتر واعتبرت سكوت " حسام " مجرد شرود، فراحت تلح عليه أن يكمل الحكاية:

" كنت بتحلم بإيه؟ "

راح يحكي بنبرة أكثر جدية:

" كنت بلم أشلاء صاحبي، كل ما ألمها تقع مني، وتطلع مرة تانية. أرفع إيده من على الأرض، تكون معايا على دراعي، أبص ألقيها مغروسة في الرمل ونصها مفرود قدامي. كنت خايف. الأمر العسكري صدر. إن رجعت من غير صاحبي هتحاكم محاكمة عسكرية. بصيت

قدامي لقيت مخلة مليانة بأغراض العساكر، فرغتها ورحت حاطط فيها الأجزاء اللي أنا لمتها. نجدتني المخلة، بس كنت خايف جدا، وإيدي بترتعش. مع إن جسمه متقطع، كنت عارفه انه عايش في حتة، مستخبي. سمعته بيقول انه هيفضل معايا ومش هايسبني. سمعت جسمه المتقطع جوه المخلة بيقول: لا إله إلا أنت أني كنت من الظالمين. صحيت، لقيت نفسي بردان، ودعاء سيدنا يونس على لساني. خفت أكتر. كنت بسمعه جاي من المخلة وفي نفس الوقت على لساني. كان العنبر كله نايم. أنا لوحدي اللي صاحي. عليت صوتي عشان أغطي على الصوت اللي جاي من المخلة ولقيت قلبي استريح. افتكرتك، لما قرأتي لي قصة سيدنا يونس، استغربت، أزاي الواحد يبقى ناسي حاجة خالص، سنين طويلة، وفجأة يفتكرها وكأنها حصلت امبارح. وأنا صغير كنت بخاف أنام في الضلمة. في ليلة صحيت، لقيت الدنيا كحل، صرخت. جيتي ولعتي النور ونمتي جنبي. كان عندنا قصص الأنبياء في غلاف أخضر عليها رسومات، وقرأتي لي قصة سيدنا يونس وحفظتني الدعاء، ما اعرفتش انه هيفضل عايش كل المدة دي، ويطلع من جوايا عشان يخفف عني أصعب ليلة في السجن ".

دق جرس الباب عاليا طويلا، تطلع حسام حوله مندهشا، ولمحت ظلا من الراحة يكسو ملامحه وكأنه قد تذكر انه هنا في البيت. اتجه صامتا إلى الباب ونزل السلم بسرعة. سمعته يتحدث مع عم " نصر " السمسار في بير السلم. أسندت " نورا " رأسها على ظهر الكرسي،

وتنهدت بصوت مسموع. خيل إلى أن أحزانها قد عادت أكثر كثافة، والحكاية التي حكاها حسام لكي يخرجها من حزنها زادتها حزنا.

جاء عم "نصر" وجلس معنا في الصالة، وقامت "نورا" لتعد الشاي. كان قرآن الجمعة قد بدأ يتردد في فضاء المدينة. كنت أشعر بحركتها في الداخل باقترابها من الصالة ودخولها المطبخ وبدا لي أنا "تتصنت" على حديثنا. قال عم "نصر" إن الرجل الذي سيشتري البيت سوف يكون هنا بعد صلاة الجمعة. وأن كل شيء تمام. أثناء تناولنا الشاي راح يحكي عن المنطقة التي نسكنها وكيف كانت منذ عشرين عاما منطقة نائية، وقال موجها كلامه لحسام: "أبوك كان راجل جدع، كان من أوائل الناس اللي سكنوا هنا" كان بييص لبعيد، وأدى أدت شايف" كان يقصد أن تلك البيوت التي لم تكن تساوي شيئا أصبح الآن لها ثمن. تفرغ الحديث عن العقارات في المدينة وكيف انه منذ سنة الزلزال والبلد مخنوقة، وأدى ذلك إلى ارتفاع جنوني في سعر العقارات، لكنه أدى إلى أن يتوحش الناس أيضا، كما يقول عم نصر. البيوت التي كانت بملاليم أصبحت بملايين. جاءت "نورا" بالشاي ولمحتها تدخل غرفة الصالون وتوارب الباب، لم تكن تريد أن يفوتها من حديثنا شيء. كان عم "نصر" يحكي عن تجارة العقارات الذين استغلوا إغلاق الكردون بعد الزلزال وراحوا يشترون البيوت القديمة ويبنونها عمارات عالية، واستخدامهم لطرق جهنمية لكي يهدموا البيوت القديمة ويخرجون سكانها، كانوا يغمرون أساسات البيوت بالمياه، أو يسقونها بماء النار، ويستخدمون معدات تزيح الجدران وحكي لي قصة

بيت أثري في شارع النحاس، كان البيت تحفة، كان بيتا لأحد أقارب النحاس باشا، والدولة سوف تأخذه وتحوله إلى اثر، كان يدير عملية هدم البيت محامي شاب، سقى الجدران بماء النار في البدروم، لاحظ الجيران بخار يخرج من أساس البيت كالضباب الخفيف، تنبهوا واشتكوا لجهات الأمن وفي المحافظة لكن أحدا لم يسأل، ذات ليلة سمعوا طقطقة ثم صوت صرير ثم زلزلت الأرض كأنه يوم القيامة، هدم البيت. غطت المنطقة سحابة هائلة من التراب. قام الناس في منتصف الليل، " الحمد لله انه أتهد في الفجر " بالنهار تركن كثير من السيارات بجواره لأنه في نفس الشارع الموصل إلى المحكمة.

صمت عم " نصر " وهو يبدي دهشته من الزمن. كان يقطع سكوته بكلمات التعجب مما يحدث. هذا الصمت غير المنتظم، ترك مساحة خالية كي أتيقن من الصوت الخافت الذي كنت أسمعه طول الوقت يتردد هناك آتيا من غرفة الصالون؛ صوت بكاء خافت.

تمت